المرأة في حياة الأنبياء

عبدالرحمن محمد هليل

مكتبة الإيمان - بالمنصورة

الإهداء

برًّا بهمـا، ووفاءً لهـما، وحبًّـا فيهـما، وإحـسانًا إليهما، أقدم ثمرة هذا الجهد المتواضع، حتى مع صدق النية، وطهارة القصد، وصريح الرأي ـ للوالدين الغاليين ـ فلقـد تعلمت منهـمـا حب النـاس ، كل الناس، والتسـامح مع الناس. . ـ كل الناس ـ التماسًا للمـثوبة، وحرصًـا على الأجر، وجـميل العـفو، وكـرم العوض والعطاء، من خالقٍ قادرٍ عادلٍ منصفٍ، وسـعت رحمته كل شيء، وعمّ إنصافه جميع المظلومين...

أسأل الله - سبحانه - لهما واسع الرحمة، وفسيح الجنة، وكرم المنزلة، وفضل الستر والقبول في الدارين.

عبد الرحمن محمد هليل

جناكليس ـ رمل الإسكندرية، في ١٠/٤/٢٠٠٣م

الموافق ٨ من صفر ١٤٢٤ هـ

تقديم

هذا بيان وتبيين

بقلم حامد علي زقزوق، من علماء الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

وبالبسملة يكون الخير العميم من الله العظيم وبعد: فالزميل العزيز الأستاذ الكبير عبد الرحمن محمد هليل ممن بذلوا الكثير في ميدان التربية والتعليم، وممن لهم الباع الطويل والبصمات المضيئة في العطاء والتثقيف والتوجيه، وقد تدرج في السلم الوظيفي في ظل العطاء ،والبذل بجدارة وتألق وسخاء متواصل، إلى أن وصل إلى مكانة مرموقة في هذا الميدان، وها هو ذا يشغل وقته بعد إحالته إلى التقاعد، بإخراج كتب نافعة، لها مكانتها العلمية في ميدان العلم والكتابة، وقد أسعدني هذا الأخ العزيز بكتابه القيم «**المرأة في حياة الأنبياء**» وقد تصفحته فإذا هو نبراس مضيء، ينير طريق الحياة، ويبدد أستار الظلام، ويغذي العقول ويبهج النفوس، وإذا هو قرة عين لي ولغيري ممن سيسعدون برؤيته، ويعيشون بعقولهم في معيته، ويصحبونه في جلّ أوقاتهم للاستفادة منه، وتغذية قرائحهم بما يحمله بين دفتيه من موضوعات حية هادفة، وما يشتمل عليه من منافع جمّة، وما يتضمنه من مزايا هامة، وقد لبس هذا الكتاب حلة قشيبة من جمال الأسلوب، وحسن العرض، وسمو الهدف؛ ولذا فهو يشد إليه كل من يسمع عنه، ليعيش في بستانه الوارف الظلال، وينعم بالجلوس في

ظل دوحته الباسقة الخضراء، وفوق أرائكه المريحة الجميلة، وقد استقى المؤلف معلومات كتابه من الأساس الرباني، الذي بني عليه دين الإسلام، وهو القرآن الكريم، ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنه كلام رب العزة جل شأنه، وهو تنزيل السماء ودستور الأمة المحمدية، والمحفوظ من قبل الله تعالى، وهو خير الحافظين وصدق سبحانه حيثُ قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

إن هذا الكتاب بحق تحفة رائعة، لما يحـويه بين دفتيه من غذاء دسم نافع لأولي النهى، وأخي وزميلي مؤلف هذا الكتاب «المرأة في ظلال الأنبياء» يمتاز بأسلوبه الجذاب، وحديثه الشائق، وتصويره الرائع، ولذا فهو يأخذ بمجامع القلوب، ويتدفق تدفق السلسبيل، وهذا الزميل العزيز سبق له الاشتراك معي ومع غيري من الزملاء في إصدار كتاب يسمى «دليل الدعاة» وكانت له اليد الطولى فيما قدّم فيه من روائع الكلم، وها هو ذا يقدم لنا هذا الكتاب «المرأة في ظلال الأنبياء» وفيه ألقى الضوء عليها وأظهر لنا حقيقتها إيجابا وسلبا، وأزاح الستار عنها لتتضح أمامنا الرؤية الشاملة بالنسبة لها، وأتى لنا بالمعلومات الحقيقية عنها من كتاب الله تبارك وتعالى، ذلك الكتاب الذي لا يتطرق إليه الشك، والذي هو نور الله في الأرض، وقد تناول القرآن الكريم دور المرأة في ظلال الأنبياء من خلال تعاملها مع تلك الصفوة من خلق الله تبارك وتعالى... إنها الرؤية الحقيقية للمرأة، وإنه الدور الذي أدته على مسرح الحياة، وإنه التعامل الذي جاء به القرآن الكريم وقصه علينا، وهنيئا للاتي تعاملن مع أزواجهن بروح الإيمان، ودماثة الأخلاق وحسن السجايا وتعسا للائي

تعاملن مع أزواجهن تعاملا شيطانيا، خاليا من الإيمان، نائيا عن المروءة، بعيدا عن الله وعن كل الصفات الطيبة، وتلك هي صورة التحريم تعرض علينا نموذجين؟ أحدهمـا مبني على الإيمان، والآخر مـبني على الباطل، والنمـوذج الأول منهمـا وهو المبني على الإيمان بالله، يرتكز على قـاعدة صلبة قوية من السـجايا الفاضلة كالصدق والوفاء وغـير ذلك من فضائل عاليـة وشمائل رفـيعة، ولهـذا فحسن العـاقبة من نـصيب أولئك الذين يعيشون في ظل الإيمان والسجايا الإيمانيـة، وأما النموذج الآخر، فهو لا يحـمل حسن العـاقبـة، لأنه يعـيش على أرض هشة رخـوة، ولأن هذا الصنف من الناس، لا يحب الحياة إلا مع الشيطان، وفي مستنقع الرذائل ووهاد الشر، ولذا كانت العاقبة سيـئة، والمستقبل قاتمًا، وتلك هي سورة التحريم تعرض علينا هذين الصنفين، وذلك في قول الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٠-١٢]. وما أبعد الفرق بين المثلين، إذ إن أحدهما إلى النار وبئس المصير، وأما الآخر فإلى الجنة والنعيم..

أخي عـبد الرحـمن: أقـدم لك باقة عطـرية من صنع قلبي، وهي هدية مني إليك، وهي كذلك تعبيـرعن سروري بما قدمت وأول الغيث يا أخي قطرة، ثم ينهمر، وإني لأرجو لقـلمك أن يواصل المسيرة، ويسجل دون توقف ما تجود به قريحتك من علم نافع في ظل الصحة والعافية.

وفي الختام أقدم أبياتا شعرية أتوج بها كلمتي لتقديم كتابك النافع .

بتـــوفـــيق مـن الله وفـــضل ∴ بـدا نجم تـألـق في الـزمـــــان
بأسـلوب جـمـــيل ذي بهـــاء ∴ وتوجـيـه وصـدق في البيـــان
بيـــان رائع فـــيـــه سناء ∴ وكـشفٌ للحـقـائق من قـران
وهذا حـامـد زقـزوق يرجـو ∴ من الله ســـدادًا فـي بيـــان

حامد علي زقزوق

من علماء الأزهر الشريف

٢٠٠٣/٤/٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كُتِبَ عن المرأة الكثير، ولكن لأمرٍ غير مفهوم، ولسبب غير مبررٍ إطلاقًا، سكت المؤلفون جميعا عن الكتابة عنها، في ظلال معايشتها للأنبياء والرسل: أما، وزوجا، وابنة، وأختا، محبةً مؤيدةً، وكارهةً معارضة...

ولعل هذا السكوت اكتفاءً بما كتبوا عنها في حياة نبّيٍ بذاته، وفي هذا التصور قصور، وفي هذا الفهم عجز واعوجاج!!! لأنه ينال من التعرف عليها بوضوح، من خلال هذا المنظور الواسع والفضفاض.

من هنا جاءت دراستنا - على إيجازها - لتسدّ نقصًا في المكتبة الإسلامية، ولتلقي مزيد ضوءٍ على إمكاناتها وقدراتها، وحقيقة جوهرها، بعيدًا عن الإطار الضيق والخانق، والمشوّه لرسالتها، والظالم لها، هذا الإطار الذي حُبستْ فيه، والذي يحلو لأصحابه، ترديد مقولة فارغة تقول في كل حين: [إن المرأة مخلوق ضعيف، أو إنها الجنس الناعم واللطيف]!!!

حسب هذه الدراسة أن تتجلى الحقيقة المجددة، فتصحح التصور، والفهم، وتفتح باب التحليل الأوسع، والأرحب، أمام الباحثين الجادين

من بعدنا، إن عطاء المرأة وهي في ظلال الأنبيـاء، يعني عطاءها الطبيعي التلقائي في جـوٍ مشحونٍ بالخـوارق والمعجزات، وحيث تسـقط الأقنعة، والزيف أو التمـثيل والادعاء، ومن هنا تأتي الأحكام - لها أو علـيها - واقعيّةً منطقيةً، حاكمةً ومعبرةً ومجرّدة . .

على أننا لا ندعي أن هذه الدراسة المركـزة، كافيةٌ ومسـتوفاةٌ، لأننا نراها مجرد خطوة في الطريق الصحيح، ووصولا للكفاية والاستيفاء . .

حسبنا أن نجسِّد هنا عطاءها في ظلال بعض الأنبياء - وعلى سبيل المثال لا للحـصر- حـتى نراه معا وبوضـوح، وفي حالتـيه وشقـيه: في الطاعة والعصيان والرقة والعنف...

وبادئ ذي بدء نؤكد أن المنهج القرآني، وفي تناول قصص الأنبياء، قد أغـفل تماما وعن قصـدٍ في ذكر أسمـاء النساء: زوجاتٍ للأنبـياء، أو أمهاتٍ أو أخـواتٍ وكما سنعرضُ في حديثنا عن هذا المنهجِ بالتـفصيل، وحـتى نرد على أسـئلةٍ عـدةٍ تتـردّد في هدوء، وسنرى في هذا البـحث المتـواضع، أن عطاء المرأة فطريّ ورباني، ومع ضـراوة الضغـوط عليهـا أحيـانًا، نراها بصبـرها العظيم، قويةً وشـامخةً كـالجبل، وصلبـةً وأبيّةً كـالفـولاذ... نلـتـمس عطاءها -حين الحب والودّ والإيـناس - ناعـمًـا كالحـرير، مدهشًا كـالسحر، مُـشرقًا كـالرحمة، فـاتنًا وفتانًا وكـالنسيم العليل...

ونلتـمس عطاءها - حـين الكراهيـة والبـغض والغـضب - هادرًا كـاسحًـا، عاصـفًا لا يرحم، مـدمرًا لا يطاق. . إنه سـعيـر لا ينطفئ، وبركان لا يهدأ، ولا يسكن ولا يستريح!!! وهذا هو عطاؤها وكما نراه،

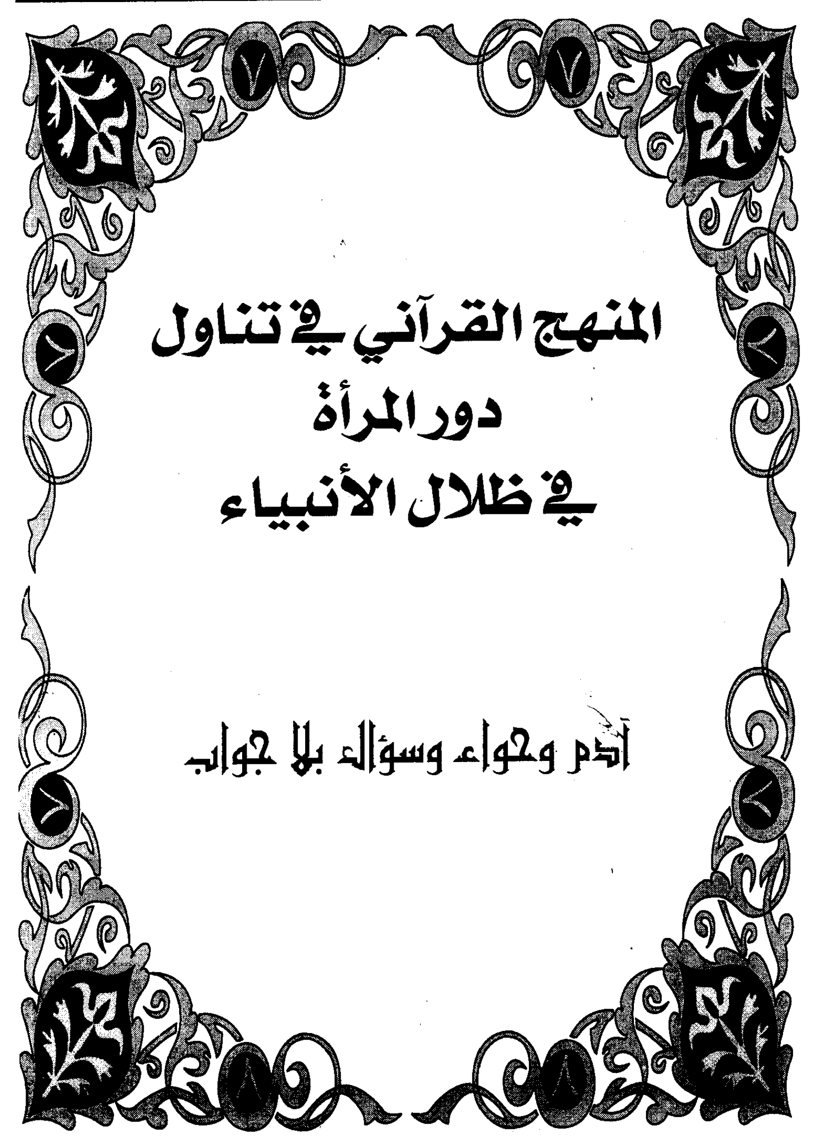
في قصص الأنبياء والرسل، بل وكما نشاهده على مرمى البصر، في مألوف الحياة، وما تنشره الصحف أو وسائل الإعلام الأخرى، وإذن فَلِمَ السكوت؟ هل نُزيِّف الحقائق؟ هل نُشوِّه الصدق؟ هل نردد ببلاهة، ما ردده ظالموها وبغباء عن الجنس الناعم أو الجنس الضعيف، أو الذي أخرج آدم من الجنة؟!!!

[ونقولها بملء الفم صادقين]:

لن يكون جمال المرأة وكمالها في نعومتها أو ضعفها المزعوم، إنما يكون هذا الجمال وذاك الكمال، فقط في احترام حدود إمكانات الطبيعة، والخلقة السوية، والفطرة الطيبة التي فطر الله الناس عليها: رجالاً ونساءً على حد سواء فهل يفهمون؟ نأمل ونسأل الله السداد والعون.

المؤلف





المنهج القرآني في تناول دور المرأة في ظلال الأنبياء

آدم وحواء وسؤال بلا جواب

● المرأة والمنهج القرآني في تناول قصص الأنبياء ●
آدم وحواء

بعد استقراء موضوعي نستطيع القول، بأن القرآن الكريم قد ألزم نفسه، بمنهج واضح، حينما يتعرض لدور المرأة في ظلال الأنبياء، وهو منهج لم يقف عنده أحد من قبل كثيرا.. إنه يغفل اسم المرأة دومًا: أمًا، أو زوجًا، أو ابنةً لنبي، وهو إغفال تام نراه إلا في ندرة الندرة، والتي تمثلت في حديثه عن سيدنا عيسى بدون نسبٍ لأمه... [راجع الآيات في سورها] ١٣٦ البقرة، ٥٥، ٥٩، ٨٤، آل عمران، ٨٥ الأنعام، ١٣ الشورى، ٦٣ الزخرف، في الآيات المشار إليها، تحدث عن عيسى دون ذكر مريمٌ، ولحكمة لا نعرفها، ولسبب لا ندركه.

المنهج القرآني سار على هذا الدرب، متخطيا الأسماء كلها، حتى في قصة البدء، قصة آدم وحواء، وتعالوا معنا نستعرض بعض النصوص، التي نرى فيها خطاب الله حينًا، موجها لآدم باسم، وموجها أحيانًا لزوجه دون ذكر اسمها:

١- بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

٢- ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧].

وعلى امتداد كتاب الله نجد الخطاب لنبيّ الله محمد - ﷺ - دون ذكر أسماء أزواجه وبناته، حتى وهو يخاطبهن معه، ونكرر.. ولسببٍ غير مدرك.

٣- ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

٤- ﴿ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

ثم تأتي قصة زيدٍ مع زينب بنت جحشٍ، في ضوء هذا الالتزام العجيب بالمنهج، وإن لم يكن زيدٌ هذا نبيًا، إلا أن انفصاله عنها بالطلاق، هيأ فرصةً تشريعيةً لزواج رسول منها، ولتصبح بهذا الزواج، واحدة من أمهات المؤمنين:

٥- ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

إن قصة زواج « زيد » هذا من «زينب» ذات السؤدد، والرفعة، والكمال والجاه وإن قصة طلاقها بعد عشرةٍ فاشلةٍ وقصيرة معها، وأن قصة زواج المصطفى منها بعد هذا كله...

هذه القصص الثلاث، فيها الكثير من عبر التشريع الإلهيّ، وعظاته الكبرى ويكفي ما تضمنته من تأمل يهدي إلى الحق، وإلى طريق الله

المستقيم...

لقد بدا واضحًا أن هذا النهج في التناول، ظل بلا تغيير أو تبديل ، حتى في أحداثٍ ذات خطرٍ رهيب ، كان لبعض أمهات المؤمنين فيها دور يُحكى...

٦ـ فآيات الإفك على طولها، وعلى ضراوة ردود فعلها، وردت بدون ذكر اسم السيدة «عائشة بنت أبي بكر الصديق»، [راجع الآيات من ١١ ,١٨في سورة النور].

٧ـ ثم راجع أيضًا الآيات من ١ ، ٥ في سورة التحريم، حتى تطمئن إلى أنها قد جاءت بلا أسماء لبعض أمهات المؤمنين كـ«مارية، وعائشة، وحفصة» أي أنها التزمت بالمنهج الذي توصلنا إليه، وأفضنا الحديث حوله حتى نستجليه ومن هنا كانت المشقة والصعوبة في البحث عن أسماء النساء: كأمهاتٍ أو كأزواجٍ أوبناتٍ أو أخواتٍ للأنبياء، بعيدًا عمَّن تواترت أسماؤهنّ في كتب السِّيَر، والتاريخ والحديث، والقصص القرآني، وحتى لا نفتح الباب على مصراعيه، لتناولٍ غير مأمون العاقبة والنتائج، وحتى يظل تراثنا الديني مصونًا ومرعيًا...

لا نقول هذا في معرض تبريرٍ لتقصير، بل نقوله إقرارًا لواقع ومنهج، بحكم جدية البحث، وصدق الكلمة، وصفاء النية، وسلامة المقصد وطهارة الهدف.

ومن هنا أيضًا، تأتي هذه الدراسة الموجزة والمركزة ، مجرد إطلالة على دور المرأة في ظلال الأنبياء ـ بعض الأنبياء، وعلى سبيل المثال ـ، بحيث تكفي دليلاً، وبرهانًا وبيانًا لهذا الدور، بخيره وشره، وحُلوه

ومُرِّهْ، حتى نجسِّد العظة والعبرة.

ودعونا نتساءل عن عـائد معرفتنا بأسماء أمـهات وأزواج الأنبياء : «نوح ولوط وموسى وزكريا ويوسف وهارون وإسحاق ويعقوب»... مثلاً.

مـا الجديد الذي توفـره لنا هذه المعـرفة؟ هل سـيتـغيـر المضمـون الفكريٌّ،أو الديني الـتشـريعي،لما تطرحـه القـصص والمواقف من عـبـرٍ ودروس؟ الجواب لا...

إن هذا القصص غيبيٌّ، امتنّ الله بـه على رسول الله خاتم النبيِّين، تسليةً وعبـرةً، وتسريةً، وعظةً، وموفور تصديقـه، فلم نلفت أنفسنا إلى حدودٍ لا يجب تجاوزها أو تخطيها؟!!!

إن المرء يعـدهن، حينمـا يرى البعض غـارقًا حتى أذنيـه، في هذا التجـاوز أو التّخطي، لقد كلفـوا أنفسهم شططا،حـتى حينما يتعـرضون لتفسير لفظ «السوأة» في الآية الكريمة:

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طـه: ١٢٠ ـ ١٢٢].

لقـد ارتاحـوا إلى الدلالة اللفظيـة السطحـيـة، وتناسـوا أن للفظ مضـامينه العديدة، والتي تندرج تحت المعـقول والمستسـاغ،وهكذا غابت عنهم هذه البدهية، ولم يشغلوا أنفسهم بالمقـصود باللفظ نفسه، في قصة ابني آدم بعظاتها وعبرها !!!

يصور القـرآن الكريم ندم هذا القاتل الذي لوث يديه بدماء أخـيه،

حينما تجسد له سوء صنيعه، بل وعجزه عن الوصول إلى حل، يحسم به حيرة التصرف في جثمان القتيل، فيقول: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣٠، ٣١].

وعود على بدء نقول في إيجاز:

حسبنا من الأسماء ما ورد في كتاب الله، وأحاديث رسول الله، وما تناقلته بتواترٍ تام كتب السير والتاريخ، فلقد اختار الله لنا من العلم ما فيه غناء، والخير دومًا في كل ما يختار الله، فلنهدأ بالاً ولنطمئن خاطرًا، ولنسعد بما اختار لنا وأراد.

ولنترك السؤال الصعب، حتى النهاية: من كان مسئولاً عن هبوط آدم وحواء إلى الأرض، بعد إخراجهما من الجنة؟. وحتى نستعرض أدوار المرأة في ظلال الأنبياء، كمقدمة كبرى، لنتيجةٍ مرجوةٍ بمشيئة الله وعونه، وهداه...





المرأة أمًّا لنبي

كليم الله موسى بين...

أمه ، وأخته ، وامرأة فرعون

◘ • ◘كليم الله موسى بين أمه، وأخته، وامرأة فرعون ◘ • ◘

تناثرت قصة نبي الله موسى في أكثر من عشر سور قرآنية، ولكم كان ممتعًا للغاية، هذا التصوير الرائع لطفولته، وشبابه، واصطفائه نبيًا مرسلاً...

وإذا كنا نتحدث عن المرأة في حياة وظلال الأنبياء فإن الوقفة بنا تطول عندها في حياته، ذلكم أن القرآن الكريم، قد حَدَّد ملامح أدوارها، ومن خلال ما عرض من تفصيل جميل، يحتم علينا استجلاء هذا الدور بوضوح ، وإن ظلت الأسماء مجهولة منكّرةً، التزامًا بمنهج القرآن الكريم في تناول قصص الأنبياء...

أولاً: بالنسبة لأمه:

فلقد كانت أهلاً لاستقبال ومضات وحي الله لها ، بما يجب أن تفعل، حينما تحس ضغوط الخوف عليه طفلاً رضيعًا، في جوٍ عام سيطرت فيه جهالة الحاكم وبطش السلطان بالرضّع الذكور!!!

وقبل طرح الآيات التي تحدثت عن وحي الله لها، نؤكد أنه وحي بمفهومه الواسع، من إلهام صادق، أو رؤى في النوم، أو ما يبثه الله في النفس والخاطر من مشاعر وأحاسيس تخص أمرًا بذاته، وهذا لأن الوحي بمفهومه المعروف، وبشخص جبريل عليه السلام وقف على الأنبياء والرسل دون سواهم ولنقرأ على تؤدة وتأمل هذه الآيات العطرة:

أ - ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ

فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طه: ٣٨، ٣٩].

ب ـ ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾. [القصص: ٧].

النصَّان يدوران حول مضمون ما أوحى الله به لأم موسى. وينفرد النص الأول بالإشارة إلى ضمانات السماء للحفاظ عليه، وتوفير السلامة له...

وينفرد النص الثاني بفيض الطمأنينة لهذه الأم القَلقة والخائفة حتى تهدأ بالاً ونفسًا، فلقد نهاها عن استشعار الخوف والحزن معًا، وأكد لها أنه سيرده إليها، وباختياره ومشيئته سيكون نبيًا مرسلاً... إنه عالم الغيب، وعالم المعجزات، وعالم الإعجاز الكبير:

١ـ انظروا إلى هذا الأسلوب القرآني الساحر، والذي يجمل الكثير والكثير في كلمات محدودات.

٢ـ انظروا إلى هذه الخصوصية العجيبة في بناء شخصية نبي الله موسى ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾. [طه: ٣٩].

٣ـ انظروا إلى هذه الأوامر والنواهي التي وردت في النَّصين، دفعة واحدة، وبسرعة مذهلة ـ لتُعايشوا فيها بعد تأمل ـ الراحةَ المبهجةَ للنفس والطمأنينة الكاملةَ للروح، والأمان التام للخاطر ...

والخلاصة:

أن أمومة يوجهها الوحي، وتحميها وصغيرها بركات السماء أو وعد الله، لأمومة كريمة منتقاه، وإنها ـ وبحقّ ـ لأمومة تستحق عاطر الإشادة

والثناء، **وإنها وفي كل أحوالها**، لتمثل رصيد عطاء المرأة النبيلة والحانية، حينما تسمو، وحينما تعظم، وحينما يوضع عطاؤها في ميزان الخالدات...

ثانيًا: بالنسبة لأخته:

فلقد صوَّرها القرآن الكريم، شريكةَ قلق، ومطيعةً طيعةً ملبية للأمر، وملتزمة بما عهدت إليها أمها. أم موسى ـ عليه السلام ـ بعد أن نفذت توجيهات الوحي إليها عندما اشتد عليها الخوف، وتملكها الذعر، فوضعته في التابوت وألقت به في اليم، ليأخذه بالفعل عدو لله، وعدو له !!!

﴿**وَقَالَتْ لأُخْتِه قُصِّيه**﴾ (أي تتبّعي خبره وتعرفي مصيره) ﴿**فَبَصُرَتْ بِه عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**﴾. ﴿**وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ**﴾ (أي: أخته) ﴿**هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّه كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [القصص: ١١ ـ ١٣].

لقد تتبّعَتْ أخباره وتعرفت على مصيره، ولعبت الدور الناجح حين رفض المراضع كلها، حتى أشرف على الهلاك، وألقت أخته بنصيحتها، ورده الله كسابق وعده لأمه لإرضاعه، وحتى تزول مشاعر الخوف والحزن لديها، ولتظلَّ على إيمانها بصدق وعد الله لها، إنه حفيظ عليم...

هي إذًا شقيقة تحب أخاها، بل هي لا تقل عن أمها حبًا له، وقلقًا عليه، وحرصًا على نجاته، وهي مطيعة بارة، وتلكم صفات أهّلتها لهذا الدور الحيوي الذي أدته بنجاح، وسجله القرآن الكريم باعتباره شهادةً

رائعةً خالدةً على مر العصور والأزمان...

جـ ـ وبالنسبة لزوجه:

فلقد تفهمنا ظروف هروب موسى إلى مدين، إثر نصح ناصح محب له بالهرب . ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٠ ـ ٢٢].

تفهمنا رد فعل صنيعه الطيب حينما ورد ماء مدين ووجد عليه أمةً من الناس يسقون، ووجد من دونهم امرأتين تذودان، قال ما خطبكما؟ قالتا لانسقي حتى يصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير، فسقى لهما...

يحكي القرآن قصة زواج موسى من إحدى المرأتين، بعد أن أوفى بما التزم به أمام أبيهما ...ولقد كان زواجًا مباركًا، إذ فتح أمامه باب الاصطفاء على مصراعيه، وكلفه الله رسولاً نبيًا.

غير أن القرآن ـ وفي أكثر من عشر سور ـ لم يضف جديدًا لمعالم شخصية زوج موسى فهي امرأة مطيعةٌ لزوجها، وهي أهله، وهذا وصف يوحي بكثير الصفات المحببة والكريمة دومًا...

١ ـ ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩].

٢ ـ ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (٩) إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١)

إنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ⑫ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ⑬ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طـه: ٩-١٤].

تفهموا، إذن إيحاءات لفظ « الأهل» والذي تكرر في النصّين السابقين، وكيف كان زواج نبي الله موسى بشيرًا عاجلاً بتكليف السماء له...

تفهموا أيضًا ما يعنيه لفظ «الخوف»، والذي تردد مرارًا في غالبية السور التي تناولت قصته، ولنذكره بها فإن الذكرى تنفع المؤمنين:

١- ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ [القصص: ٢١].

٢- ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص: ٢٥].

٣- ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ⑲ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ⑳ قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ ﴾ [طه: ١٩ - ٢١].

٤- ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [القصص: ٣٣].

٥- ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ⑹⑺ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ﴾ [طه: ٦٧، ٦٨].

٦- ﴿ قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ⑷⑸ قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٥، ٤٦].

٧- ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [الشعراء: ١٤].

٨ ـ ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١].

٩ـ ﴿ يَا مُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل: ١٠].

١٠ ـ ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ ﴾ [القصص: ٣١].

ويبقى دور امرأة فرعون: «آسية بنت مزاحم» كما تحكي كتب الحديث والسير والأيام، بقي ليؤكد لكل عاقل، أن الإنسان مسئول عن عمله وحده، وأن لا تزر وازرة وزر أخرى، وسبحان الله القادر، فرعون صاحب الجبروت والبطش والسلطان، وقرار قتل الرضع من الذكور، يقبل شفاعة زوجه في موسى، إبقاءً لحياة، وإبقاءً لطرف عداء!!!

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص: ٩].

ـ وحسب هذه المرأة أن دخلت التاريخ بهذا المطلب الجرىء والشجاع، ...

ـ حسبها كذلك أن تتبرأ من أفعال فرعون، وأن تطلب من الله النجاة والخلاص والمثوبة، ...

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [التحريم: ١١].

هي إذن نموذج رائع للمرأة حينما تكون تحت إمرة شرير جبَّار، فلقد كتمت وأخفت إيمانها بالله، وبنبوَّة كليم الله موسى، حتى لا ينالها شره، وحتى لا يصل إليها بطشه وخسرانه إلى أن تجيء الفرصة للخلاص...

إن كتب السيـر التي حاولت تتبع أحداث القصـة من خلال حوالى عشـر سور قرآنيـة ، لم تستطع أن تجتـمع ـ حتى على ـ اسمـها ولكنهم أجمـعوا على أن« آسية» خـير نموذج، للمؤمنة الصـابرة والتي تخاف الله وتخشاه ...

تُرى . . هل كانت امرأة فرعون إلا الصالحة المؤمنة؟

لقد حاربت المنكر قـدر الاستطاعة، حاربته بقلبهـا، وحاربته بلسان ضراعتها :

﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

وعلى مشارف النهاية نقول:

أـ حُق للسـيدة «آسـية» أن ترفض طغـيان زوجـها الفرعـون؛ لأنه يتعارض والعدل المنشود والأمن والأمان معًا ...

ب ـ وحُقَّ لها أن تطلب فـضل ربها، بإدخالهـا الجنة دار المتقين ، فهي أهلٌ لعطائه وبرّه وكرمه ...

جـ ـ وحُقَّ لها أن تطلب نوعين مـن الخلاص: من زوجها الطاغـية المستـبدّ والظالم، ومن كل من مالأه أو أيده حـتى اصطبغ سلوكه بسلوك الطغاة الظالمين ...

ودعونا نتأمل:

ففي رحاب «آسية» كانت نشأة نبيِّ الله «موسى» ولقد حاول فرعون

المتغطرس أن يمتنَّ عليه بذلك، ولكن هيهات، فلقد ادخرته السماء لرسالة ونبوة، **سجل التاريخ فيها أنصع صفحات التكريم للمرأة**: أُمّ لهذا النبي، أو أختًا، أو زوجًا، أو مُحبةً معجبةً. ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].

وسلام عليه في الأولين وسلام عليه في الآخرين.





المرأة أمًّا لنبيّ

أمومة مريم وبنوة عيسى

▫ • ▫ أمومة مريم، وبنوة عيسى ▫ • ▫

﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩١].

حفل القرآن الكريم، وفي أكثر من سورة، بالحديث عن نبيّ الله عيسى، منسوبًا إلى أمه: المصطفاة المطهرة البتول، مريم بنت عمران، بطهر نشأتها، وطهارة تربيتها، وبزحام كفالتها، حتى استقرت في كنف نبيّ الله زكريا عليه السلام، لتنعم بحنانه، وحبه، وسهره، ورعايته...

وأطلق القرآن الكريم، اسمها على واحدة من سوره المباركة، والتي أوضحت بجلاء قصة نشأتها ومولد ابنها، والتي ألقت الضوء على جوانب هذا الإبداع الرباني في حكاية هذا المولد، وبفيض المعجزات الخارقة...

إن ميلاده معجزة، وإن قدراته بفضل ربه معجزة، وإن رفعه معجزة، وستبقى عودته إلى الأرض - هي الأخرى - معجزة المعجزات كلها ...

وإنه لشرف ومتعة، أن نقف عند هذا الفيض الإلهي، للتحليل أو البحث أو الاستمتاع غير أننا هنا قد أخذنا أنفسنا بدور المرأة في حياة الأنبياء كهدف وغاية لنسدّ نقصًا في المكتبة الإسلامية، أو لنمهد الطريق ونُعبِّده، لمن يستكمل الهدف والغاية.

إن قصة أمومة مريم، وقصة بنوّة عيسى، تأتيان من منطلق إشارة الخالق المبدع، ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ

لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ [مريم: ٣٤، ٣٥].

وتعالوا بنا نُعطر الأنفس والأرواح، بعطر القرآن الكريم، وهو يحكي هذه القصة:

أ ـ من آل عمران: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٣٧].

إنها آيات النشأة لمريم المصطفاه، فهي قطرة طاهره، من بحرٍ طاهر، أو هي امتداد للطهر والنقاء... وإنها آيات النذر الطيب الخالص لوجه الله، وتمهل وأنت تحاول فهم الآيتين [٣٤ ـ ٣٥] فهما ينتهيان بأمارات قدرة الخالق السميع للدعاء، العليم بالصالح منه، يُرسيه في بناء الخلق، وصولاً إلى الكمال المأمول...

ثم قف عند التسمية المختارة لمريم، واحتياطي التضرع لحمايتها وذريتها من الشيطان الرجيم، وحتى تدرك حلاوة الحرص على الاصطفاء والانتقاء، وحتى تلمس بيدك سر هذه الاستجابة، الربانية لدعاء أم تطمع في رضاء الله وخدمة بيت المقدس ...

ولعلها وقفة تأمل للواقع الحزين المعاصر، لاستخلاص العبرة، من النضال الشريف هناك وحتمية النصر بمشيئة الله؛ لأن وعد الله ووعيده لن يتخلفا أبدًا ...

طالع آيات الاصطفاء وشرف الكفالة من آل عمران، [٤٣ ـ ٤٤] ثم قف بنا عند آية البشرى بمولد «عيسى ابن مريم» ثُم فَيض معجزاته، ثم دهشة أمه الطاهرة المطهرة، وكيف كانت حوارات جبريل معها ذروة إيمان واقتناعٍ وارتياحٍ وثباتٍ، ورضاء بمقدور الله.

ب ـ ﴿**إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [آل عمران: ٤٥ - ٤٧].

وبكل المقاييس هي أمومة طيبة النشأة، وهي بنوّة من صنع الله وحده، جاءت بنبي الله - وكما أراد لها الخالق الحكيم - آيةً ورحمةً، وتكريمًا واستجابة للمشيئة بالكاف والنون...

وحتى نستكمل معاناة هذه الأم الطاهرة المطهرة، والمصطفاة، تعالوا نطالع في سورتها هذه القصة التي تعمق لدى المرء عظمة الصبر عند المحن، وتخطي الصعاب بثباتٍ وبثواب فهذا هو جبريل عليه السلام، يواجه مريم البتول، ووجهًا لوجه بعد صيرورته بشرًا سويًا: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي**

غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ١٦ - ٢١].

هو حوار مدهش وآسر؛ لأن مضمونه يبعث على الحيرة والتساؤل والاستغراب، وهو حوار اليقين؛ لأن مردوده: كن فيكون... وهو حوار بديع وجميل، بمقاييس تصوير اللغة، وتجسيدها وإيحاآتها، وهو أولا وأخيرا حوار الصدق والتصديق؛ لأنه مدعم بالمنطق والدليل والبرهان، اصطفى الله عيسى من مريم، واصطفى مريم من آل عمران، ثم توجّتْ المشيئة الإلهية إرادة الخالق المبدع، في أن يجعل من الاثنين معًا آيةً للناس ورحمةً: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] ... ... «يا سبحان الله» فمع هذا الوضوح في قصة بنوة عيسى، وأمومة مريم وصل الغباء والعناد والضلال والتضليل، ببني إسرائيل حدا رهيبا، من الرفض والطعن والإنكار، فادعوا كذبا وافتراء أنه الله، أو أنه ابن الله، أو أنه ثالث ثلاثة!!! ونزل القرآن الكريم ليسفه هذا الفكر المريض والمأفون: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٢ ـ ٧٣].

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

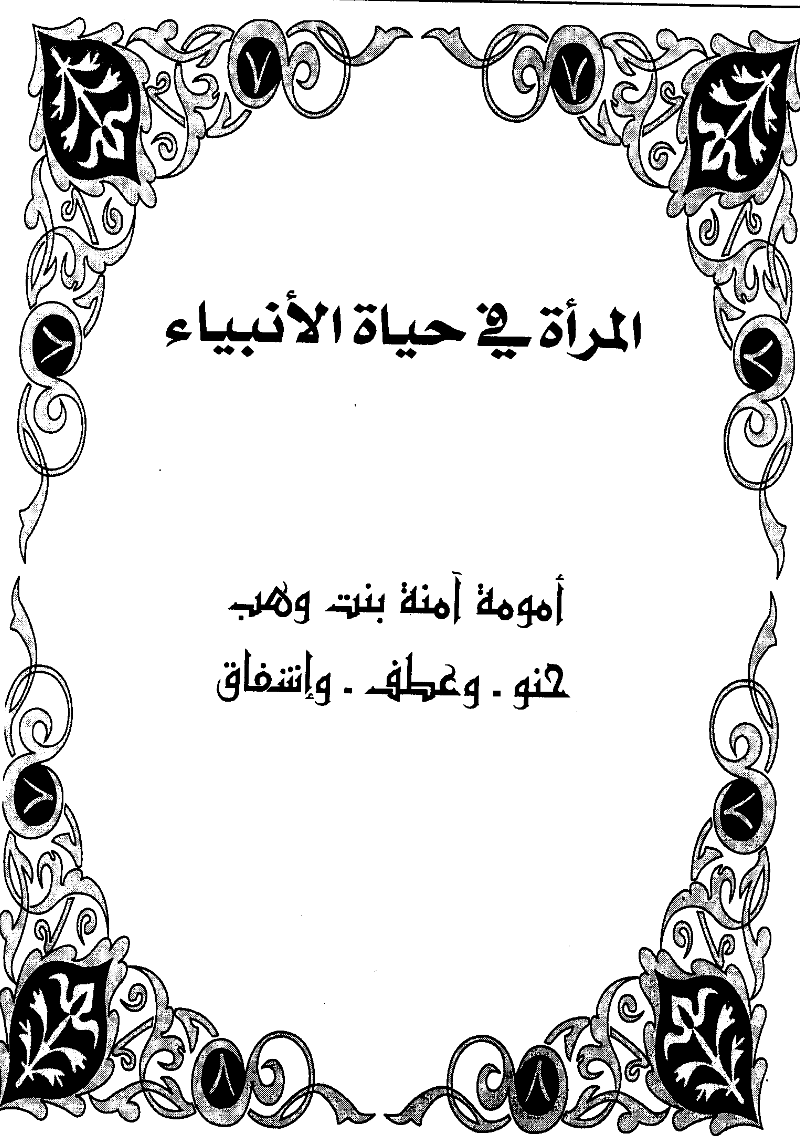
ونتساءل: كيف يستقيم الظل والعود أعوج؟ إن طبيعتهم العدوانيَّة الآثمةُ الشريرةُ، جعلتهم يختارون الضلالة، ويأنسون إليها، ويتنفسون

حقدها، كذبوا الأنبياء وقتلوهم، فكيف يطيعون عيسى أو يعترفون به نبيا مرسلا؟ ومن أين يأتيهم رشد الرأي وصائب السلوك؟ لقد استحقوا مع غضب عيسى سخط الله ولعناته: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

استمعوا واستمتعوا بحوار عيسى مع ربه، لتدركوا عظمة هذا النبيّ الرحيم.. إنه يبرئ نفسه من ضلالهم ومن تضليلهم، ثم يطلب من خالقه الرحمة بهم، والغفران لهم، بل والصفح عن مسيئهم: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

تلكم هي وبإيجاز قصة مريم وابنها، وهي قصة جسّدت عظمة الأمومة، وعظمة البنوة معها.. الأمومة الكريمة والمصطفاة في أحلى صورها، والبنوة الصالحة الخيّرة في أروع أشكالها، وإنهما معاً، ليمثلان الحب الذي غَلَفتهُ الرحمة والسكينة والعفو والكمال، كما يمثلان صدق الانتماء لله صاحب الفضل والنعم والمعجزات، تُرى هل تغير حال بني إسرائيل اليوم عن ذي قبل، فاهتدوا بعد ضلال، وآمنوا بعد عناد وكفران، وتسامحوا بعد ضغينة وحقد كريه؟

نترك الإجابة لواقع الحال في بيت المقدس، في فلسطين، في ديار مريم، وفي مهد عيسى نبي المحبة والسلام.. وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩، ٦٠].



المرأة في حياة الأنبياء

أمومة آمنة بنت وهب

حنو - وعطف - وإشفاق

أمومة آمنة بنت وهب
حنوٌ وعطفٌ وإشفاق

بسم الله الرحمـن الرحيم ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ٦ - ١١].

إنها صفوة الصفوة، التي أفرزت للإنسانية كلها نبي الرحمة والهادي البشير، صفوة تظل تتصاعد بقامتها الفارعة، من كبرياء النشأة، وكرم المحتد، وسيادة البيت، وشرف السؤدد والأصل...

انحدرت أم رسول الله محمد ﷺ، من أصلاب توارثت الجاه والمكانة والحظوة، ونعمت بالنشأة المثلى فأشربته من قيم الواقع المعاش حينئذ، ما يحسب لها في ميزان المجد، والترفع والكمال، وأحرى بأم صفوة الأنبياء أن تكون كذلك، لأنها تحمل بذور النبوة التي فاقت كل نبوة، وبذرة الرسالة التي كان وليدها فيها الخاتم والسيد، وصلى الله على الأنبياء أجمعين...

عجزت كتب السيرة والتاريخ، عن إلقاء الضوء الكافي على جوانب شخصية هذه الأم، والتي لم ينل من قدرها هذا العجز وهذا الغياب، فلقد كان حضور وليدها بسماته وصفاته، وقبل الإبلاغ بالدعوة وبعدها حضوراً طاغيًا مؤثرًا، فرض ذاته وفرض نفسه، وكان فيه وحده، ما يكفي من التعرف على سجايا وسمات وخصائص الأبوين معًا..

محمـد ﷺ وصفه ألد أعدائه بأنه الصـادق الأمين . . ترى؛ وماذا بقى بعد هاتين الصفتين، من صفات الخير الأمثل؟

وسؤالـنا: هل جاءته هذه الصـفات من فـراغ؟ أم انتقلت إليـه من مـوروث الجسـد والخلق؟ هذا الموروث الذي عـبأت به هذه الأم طاقـات البشرى بالهادي البشير ـ رحمة الرحمة ـ ولخير الإنسانية كلها...

وما من شكٍ أبدًا، أن النشأة المحمدية، كان لها مردود فعلٍ سلوكيٍ طيب، وكريم، ورحيم...

نادى بالرحـمة حـتى بالحيـوان، وجاءت في سلّم قـيم الدين الذي نادى به، وتحمل ما تحمل حتى يسود ويسود...

لقد حرم من حنو أبيـه فعوضته أمـه ـ وكان هذا إلى حين... لم ير أباه أبدًا، ولم يعايش هذه الأم الحانيـة زمنًا طويلاً، بل ماتت بعد سنوات من مولده معدودات!!! وهكذا حرم بحرمـانه منها وقبل أن يشتد عوده، العطف والحنو والرحـمة، التي تحـمي الصغـير والكبـير على الـسواء... وتدخلت عناية الله، لإحـلال البـديل، لعطاء العطف والشـفقـة، فكفله جده، ثم عمه أبو طالب، ليبقى في العود الأخضر ماء الحياة...

يروي «عمر بن الخـطاب» هذه القصة الحزينة، والمليـئة بالإشارات والإيحاءات فيقول – رضي الله عنه –:

كنت مع نفـر من صحـابة رسول الله نسـير نحـو المقابر، فـإذا به يتخطانا مسرعـا، ويتخطى العديد من القبور، ثم استـقر على قبرٍ بذاته، وإذا به ينتـحب ويبكي، بصـورة هزت فيـنا المشاعـر، حـتى أبكتنا نحن الآخرين مُنَاَجـاته، وسألته فـور عودته: يا رسول الله، مـاذا أبكاك حتى

انتحبت، فبكينا لبكائك؟

قال المصطفى ﷺ «يا ابن الخطاب، أوتعرف أي قبرٍ جلست عليه أبكي وأنتحب؟» قلت : لا يا نبي الله . . قال: «إنه قبر أمي «آمنة» استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي، ثم استأذنت ربي في الاستغفار لها فلم يأذن لي»... وهنا عرف «عمر» ومن معه السِّر الدفين وراء البكاء . .

[أسباب النزول للنيسابوري ص ١٩٩].

وهل يغيب عنا أثر استشعار الذل بسبب اليتم المبكر لنبي الرحمة؟

وكيف ودعوته تقوم على ركائز هامة، في مقدمتها إكرام اليتيم ورعايته؟

أ - بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ⑨ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ [النساء: ٩- ١٠].

ب - وفي الحديث النبوي: «أنا وكافل اليتيم في الجنة» (رواه البخاري).

أرأيتم كيف كان مردود النشأة والمعايشة؟ إنه الخير على كل حال. . . .

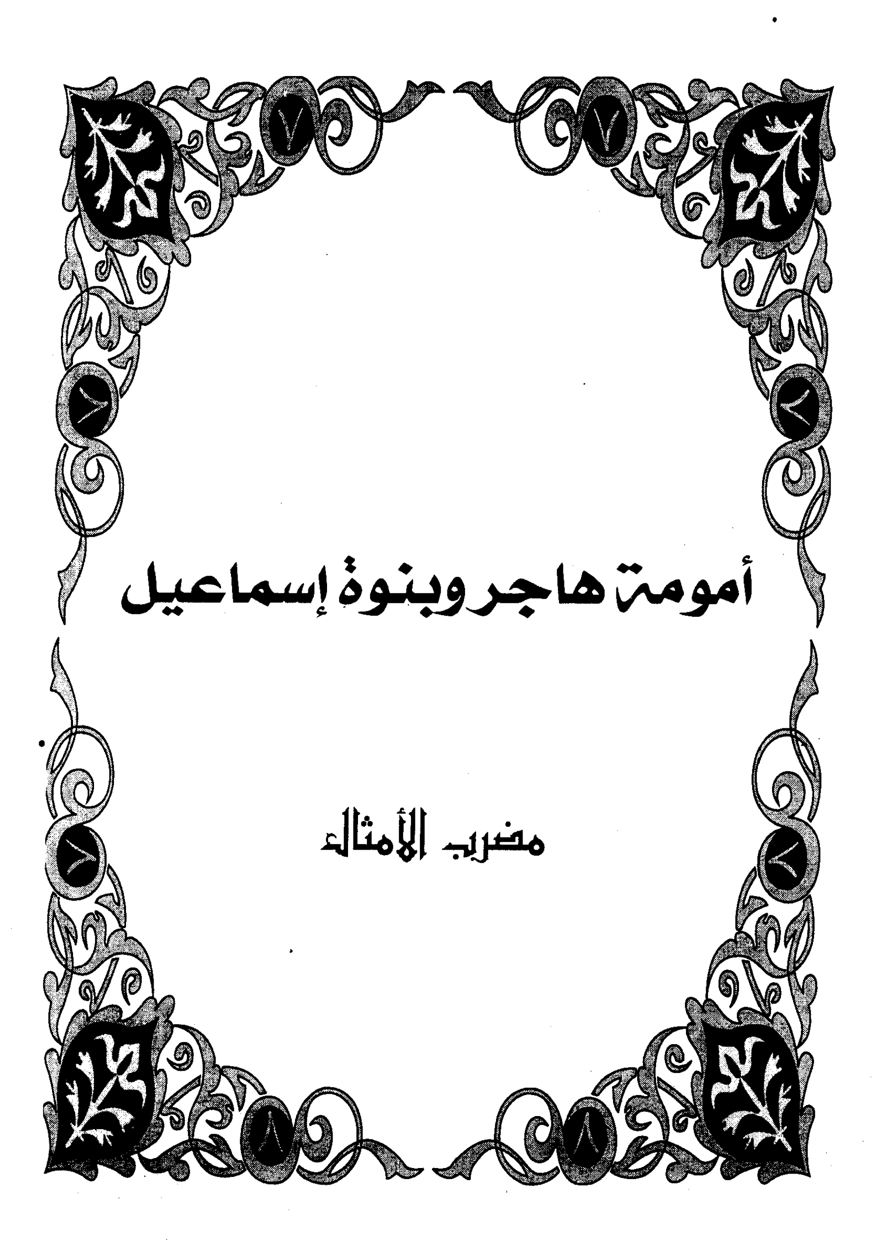
إن الرحمة عصب رسالته، بل جوهرها الأساسي والأصيل، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

إنها واحدة من ثمار عطايا «آمنة لمحمد» وهي ترضعه، وهي تضمه، وهي تهدهده في مهده وترعاه. . .

إننا لا نشتط بعيداً إذا ما قلنا: إن سجايا محمد وصفاته هي سجايا آمنة وعبد الله بن عبد المطلب معا. . .

وإن أمومة «آمنة بنت وهب» والتي لم تذكر بالاسم في القرآن الكريم، مسايرة للمنهج الذي تحدثنا عنه في تناول دور المرأة في حياة وظلال الأنبياء، إن هذه الأمومة، تمثل المثل الأسمى لمن ينشدون المثالية والكمال، وإن بنوة محمد - ﷺ - ستبقى عطر البنوة على مر الزمان، صلاة الله وسلامه على سيد الخلق، وخاتم الرسل، وصفوة الصفوة، وصدق المصطفى حينما تحدث عن تسلسل الاصطفاء قائلا: «فأنا من خيارٍ، من خيار» (رواه الشيخان).





أمومة هاجر وبنوة إسماعيل

مضرب الأمثال

أمومة هاجر وبنوة إسماعيل مضرب الأمثال

هاجر بين الخليل وإسماعيل:

في تؤدة ورقة وبهجة، تنساب البشارة بمولد نبي الله إسماعيل، تحيطه آيات قرآنية عدَّة تحصي صفاته التي عرف بها..

إنه غلام عليم، وغلام حليم، وشاب صبور بار، حتى في استسلامه ورضاه بمقدور الله، ومن خلال ما رآه أبوه في المنام، مع ضراوة وعنف ودموية المصير.. [راجع الآيات في سورها، الذاريات: ٢٤ - ٣٠، الصافات: ١٠١ - ١٠٣، الحجر: ٥٣، إلخ..].

وتتواكب صفات الخير في الذبيح الصالح، الذي شارك أباه في عمارة البيت الحرام، ورفع قواعده، ولتصل هذه الصفات الطيبة إلى منتهاها، وليصبح كما يقول القرآن رسولا نبيا: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا**﴾ [مريم: ٥٤ ، ٥٥].

ويعالج القرآن قصته، قصة الإعجاز على طول الخط، وفي ضوء منهجه عند تناول قصص الأنبياء، فيُغفل تمامًا اسم أمه، والتي أجمعت مراجع السِّير أنها «هاجر» ثم يعطي الإيحاءات والإشارات التي تؤكد توافر كل صفات الخير والصلاح فيها، فهي زوجة طيبة مطيعة مؤمنة، وهي أم حانية وعطوفة ورحيمة أيضًا...

رافقت زوجها نبي الله إبراهيم الخليل رحلته الشاقة والقاسية، وسط مخاطرات غير محسوبةٍ أبدًا، وكيف تكون محسوبة، وهي إلى وادٍ غير ذي زرع عند بيت الله المحرم؟

إن وراء القبول بالمخاطرة، ركيزة إيمان، وركيزة ثقة في تحقيق وعد الله لنبيه إبراهيم، فلقد سألته حين تركها ورضيعها في هذا الوادي الموحش والمخيف: هل هذ المنزل أنزلكه الله، أم اخترته أنت؟ فلما قال لها: إنه منزل أنزلني الله فيه، اطمأنت، وهدأت واستراحت وقالت: وإن الله لن يخذلك أبدًا، وإنه لن يُضيّعك أو يُضيعنا معك عبارة ـ وعلى قصرها تحدد ملامح ثقتها في تحقيق وعد الله بالأمن، والأمان، والسلام... وتقترب لحظات الوداع ـ وعلى بطء إيقاعها ـ لترتفع نداءات الخليل ودعواته، لتهزّ سكوت الوادي، ووحشته:

﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

ونحن حينما نستذكر ونراجع صفات الخير في نبي الله إسماعيل، وفي أمه هاجر بقلقها ومخاوفها وبثقتها وإيمانها أيضا، نعيش لحظات تأمل، كلها الدهشة، وكلها التعجب... ولم لا، ونحن أمام أم تركها زوجها وحيدةً، إلا من رضيع صغير، وأين تركهما؟ في صحراء قاحلة، قد تعطي الشوك، ولكنها لا تعطي طمأنينة الأنس والحياة، ولما لا، ونحن أمام أم ليس لها من قلبين، ليعيشا فيها موفور صبر أو سكينة مثلا...

لقد تعرَّتْ الصحراء فبدا قبح وحشتها، وأحاطت بها المخاوف وضغوطات الرهبة، حتى اعتصرت صلابتها، وتلفتت بعد مغادرة زوجها للوادي فلم تجد الماء لوليدها، وظلت في سعي دؤوب بين الصفا والمروة، بحثًا عنه، ولكن دون جدوى...

وفي غمرة الشعور الضاغط، والرهيب بالضياع، تتفجر مياه زمزم تحت قدمي وحيدها، وتستمر هذه المياه في تدفقها، وحتى الآن إلى ما شاء الله، خير شاهدٍ على فيض رحمة الله بها وبه ، فهدأت من قلق واستراحت من إجهادٍ، واطمأنت من خوف...

امرأة صنعت مع الخليل نبي الله إسماعيل، وببذل من الروح وسخاء أروع قصة نجاح... امرأة أقدمت على مخاطر الهجرة، وإلى أرض غير ذي ذرع، وإلى واد موحش مجدب، إنها لنادرة وفريدة، في عالم الأزواج والأمهات...

لقد كانت بشارة الله للزوجين، المؤمنين، عطاء المثوبة على كريم الصبر، وجميل التضرع، وإن جاءت على كبر وتصور عقم، ووسط دوامة خوف وهلع...

أ - ﴿قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ [الحجر: ٥٤ ـ ٥٥].

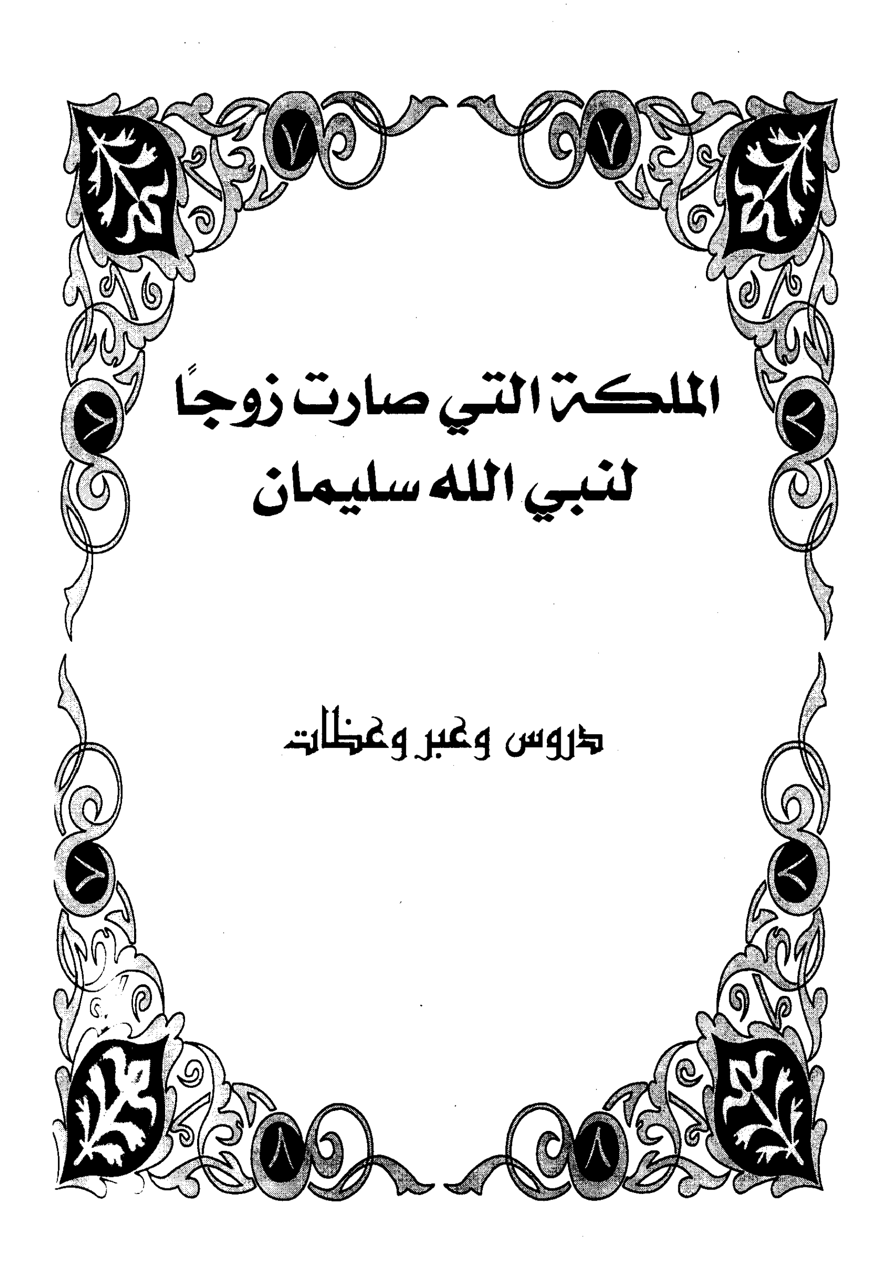
ب - ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٨ - ٣٠].

وفي المقابل تتسع طاعة إسماعيل لأبيه بعد أن بلغ من السعي إلىٰ حد قبول التضحية بالنفس عن صبر وصبور، وإيمان منقطع النظير، ويا له من درس يحتاجه الأبناء العاقون، الخاسرون.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١٠٢ - ١١٣].

فسلام علىٰ إبراهيم، وسلام علىٰ إسماعيل، وسلام علىٰ «هاجر» زوجا صالحة مطيعة طيعة، وأمًّا عطوفة رحيمة حانية، وباتت مضرب الأمثال في كل مكان، وفي كل زمان، وفي كل حين...





الملكة التي صارت زوجًا لنبي الله سليمان

دروس وعبر وعظات

الملكة التي صارت زوجا لنبي الله سليمان
دروس وعبر وعظات

ملكة ثم زوجة لسليمان عليه السلام:

إنها «بلقيس» ملكة سبأ والتي رويت قصتها في كتب السير والأخبار، وبتفصيل بديع، باعتبارها المرأة المتزنة الحكيمة، والتي أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم.

أضاء القرآن الكريم جوانب عدة من حياتها أبرزت حكمتها، وبعد نظرها وعدم مكابرتها، وهو يحكي - وبتدفق ساحر - كيف انحازت وبسرعة مدهشة، إلى جانب الخير والصلاح، والسلام والإيمان...

ويلعب الهدهد ـ على صغره وضعفه ـ في قصتها هذه، دورا تاريخيا عجيبا، فلقد نقل لنبي الله سليمان مشاهداته في سبأ، عنها وعن ملكها وعن قومها، الذين يعبدون الشمس، ولها يسجدون من دون الله...

ويدور حوار بين الهدهد، وبين النبي الذي علمه ربه منطق الطير، يبدأ بقوله لسليمان: ﴿**أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ**﴾ [النمل: ٢٢]. وينتهي باستنكاره لما يعبدون، وينقل الهدهد للملكة رسالة تهديد ووعيد، فتجمع حكماء قومها؛ ليشاركوها الرأي، ولكنهم يتحدثون بمنطق القوة والتحدي، فتلجأ هي للحيلة الذكية، وللمهادنة العاقلة والمتأنية، فترسل له هدية مصالحة أو استرضاء، ولكنه يرفضها

ويعاود التهديد والوعيد... ثم يطلب من جلسائه وأعوانه العون على استحضارها وعرشها، ويبدي الجني استعداده لتلبية المطلب قبل أن يقوم من مقامه، ويحضرها من أوتي علم الكتاب، وقبل أن يرتد لنبي الله طرف، فيطلب سليمان من معاونيه أن ينكروا لها عرشها، إمعانا في الاقتدار والقدرة والتحكم ثم يسألها: ﴿أهكذا عرشك﴾؟ قالت: ﴿كأنه هو﴾. ثم يطلب منها دخول الصرح، ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِير﴾ وعند إذ أبدت استسلامها، وأعلنت إيمانها قائلة ضارعة: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]. وتضيف كتب السير والأحداث والأخبار، الكثير والكثير حول حقيقة اسمها، وصحة إيمانها، وقصة زواجها من نبي الله سليمان، ولتكون العظة، ولتكون العبرة، ولتكون الحصيلة، من الدروس المستفادة إن شاء الله:

١- سلفا وفي البدء طلب نبي الله من ربه مُلكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فاستجاب لرجائه، وسخر له الريح تجري بأمره، كما سخر له المردة والشياطين، وأمده بجيش لجب رهيب.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧].

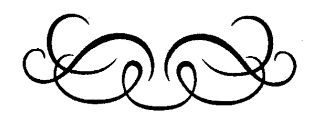
٢- مع هذه السطوة التي تسكر الرؤوس، يتضائل علم سليمان بما يجري حوله في سبأ، أمام علم الهدهد الصغير والضعيف... ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢]. يا سبحان الله علم الهدهد، يتفوق على علم نبي الله سليمان، وإنها لحكمة بالغة...

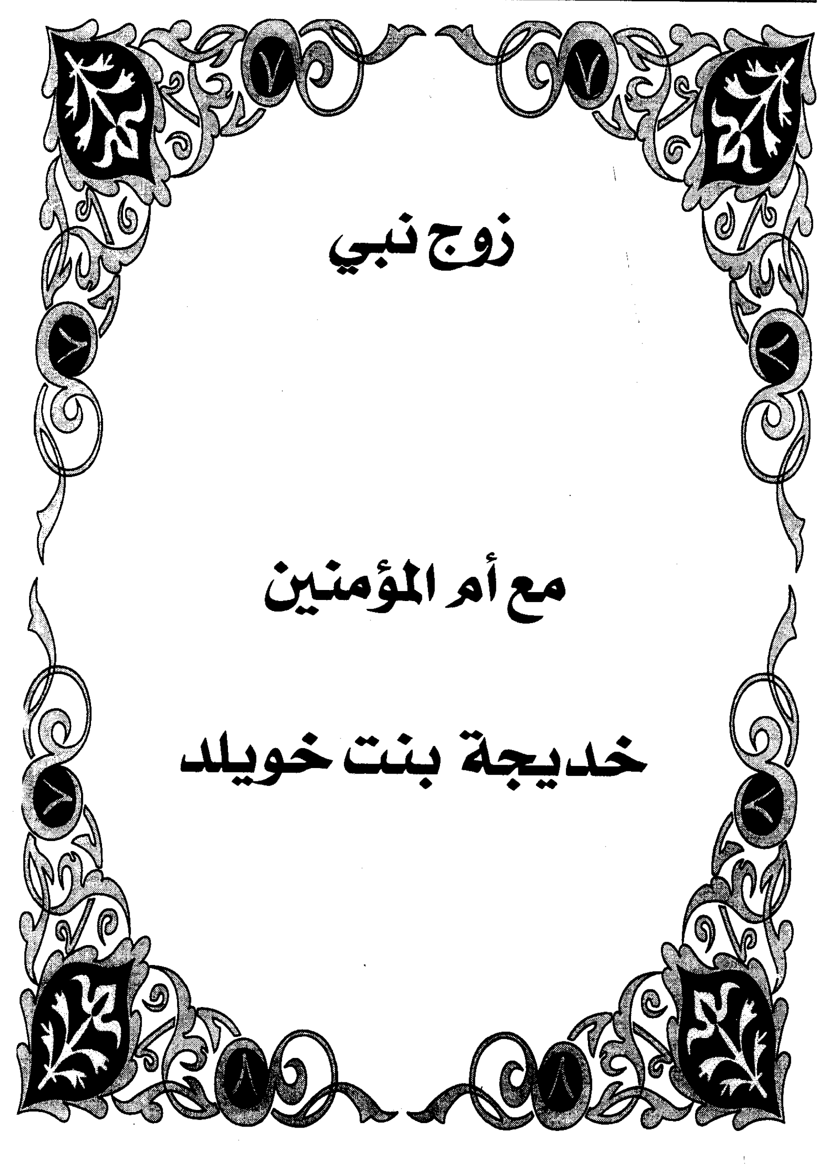
٣- ثبت بالدليل إذن: أن قـدرات الجن والشـياطين دون قـدرة من عنده علم من الكتاب، وبالتـالي فإن الزعم بقدرة الجن والشـياطين على معرفة الغيب، وَهْمٌ وباطل وضـلال وتضليل، ذلكم أنهم ظلوا مسخرين لسليمان حـتى بعد موته، ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

وتنتـهي بنا عـبـرة العـبـر، وعظة العظات، عند ذروة المصـارحـة والمكاشفة والاعتراف..

٤- ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

إنها مقولة صدق لامرأة عاقلة، رأت الخير كل الخير، والصواب كل الصواب، فيما أقدمت عليه من تصحـيح مسار العقيدة، ومن المسالمة مع سليمان، وإن امرأة على هذا القدر من الاتزان، وفي ظل زوج نبي تكون بكل المقاييس، الشـريك الودود الحبيب، والزوج الرحـيم، والتي يفيض قلبها بالحب والمودة، والإيـناس بحيث لا يستبد بهـا غرور ملك أو جاه، ولا تسيطر عليها شهوات، تحكم أو استـبداد، أو سلطان عتيد، وسبحان مقلب القلوب، والهادي إلى سواء السبيل.





زوج نبي

مع أم المؤمنين

خديجة بنت خويلد

• خديجة بنت خويلد زوج محمد ﷺ •

ويأتي الحديث عن أم المؤمنين خديجة حديث سؤدد وكمال وجلال وإكبار، لأنها في كل مواقفها، كانت المثل الأسمى للزوج البار، والوفي، والرحيم...

من حق المصطفى - ﷺ - أن يعلي قدرها، وأن يكبر تضحياتها، وأن تظل قبل الجميع من أمهات المؤمنين، مكمن حبه، وتقديره وإعزازه، فلقد كانت طوال حياتها، سيفه ودرعه وحاميه...

وقد يكون من حق أم المؤمنين عائشة، أن تغار منها حتى بعد رحيلها بسنوات طوال، فلقد تصورت خطأ أنها ملأت فراغها في قلب رسول الله، ومن هنا كان سؤالها، برصيد الدلال والتدليل: ألم يُبْدِلْكَ الله خيرا منها؟ فكان الرد المسكت والمقنع والحاسم..

وكيف؟! وقد أغنتني من فقر، وكانت أول من آمن بي وبدين الله!!

وأدركت «عائشة» لحظتها ضراوة المسافة بينها وبينها، فجعلت لهذه المسافة حرقة السؤال بعد ذلك..

«خديجة» آمنت الرسول على مالها، وآمنته على نفسها، واختارته بمحض إرادتها وكامل وعيها زوجا تحفظ له الود والحب، والثناء الكريم، وكان زواجها به وهو الصادق الأمين بهجة مكة وفرحتها وأنسها... ففي سابقة أولى تاريخية ونادرة، خطبته هي لنفسها، مع أنها المرغوبة لخلقها وجاهها، ومع أنها المطلوبة لمالها وحسبها، ولكنه «محمد»... وهل ننسى

دورها في تثبيت قلبه، يوم أن نزل عليه وحي السماء في غار حراء، فاعتراه من الرعب والهيبة والزعر والخوف ما اعتراه؟ وهل ننسى حلو حديثها وروائع منطقها، في هذا الحدث الخطير، والذي فتح باب الاختيار، والاصطفاء على مصراعيه «لمحمد بن عبد الله»؟

«والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين علي نوائب الحق والله لن يخزيك الله أبدًا»

كلمات قليلات خالدات باقيات تشهد برجحان فكر خديجة، وصدق استنتاجها، وصادق ثقتها في زوجها، فلقد جمع من صفات الخير، ما يؤهله لحمل الرسالة، وتبليغ الأمانة، وقيادة الأمة التي كانت يومها في عالم آخر، يسيطر عليه الضلال والإفساد، ويسمى الكفر والعنف، وتهزه بضراوة بالغة، عواصف الوثنية والجاهلية البلهاء...

واصطحبته إلى ابن عمها «نوفل»، فأكد لهما أن الذي نزل عليه في الغار، هو الناموس الذي نزل على «موسى وعيسى» وسائر أنبياء الله، بل لقد تمنى أن يعيش حتى يذاع السر، وتعلن الدعوة، ويطارده كفار مكة، ورعاعها وغوغائها، قائلا لرسول الله: ليتني أكون معك إذ يخرجك قومك، فيسأله في دهشة: أو مخرجي هم؟ قال «نوفل»: نعم. فما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا وأخرجوه، وطاردوه... ... وبدأت فيوضات الوحي.. وبدأت مرحلة معاناة، وجهاد ضار، ونضال مرير، مع زبانية مكة، وجهالها والمتحكمين فيها، يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره..

أم المؤمنون خديجة كانت أول أزواج المصطفى وأم جميع أولاده فيما عدا «إبراهيم» والذي توفاه الله طفلا، ولحكمة فريدة علمها عند الله

الحكيم البصير...

وربما كانت الحالة الوحيدة في مكة، التي لم يتزوج عليها زوجها في حياتها، كمألوف الناس وعادتهم هناك، ولعل وراء هذا المسلك النبيل من المصطفى، التعبير الواضح والصريح، عن عظمة مكانتها ومنزلتها لديه...

بل عندما شاء الله له أن يتزوج بعد وفاتها، لم يتزوج الأصغر منها سنا، أو الأجمل منها صورة وشكلا، بل وجد نفسه يندفع دفعا للزواج من طاعنة في العمر، حتى تستكمل تبعة ومسئولية تربية الأولاد...

وانظر كيف استقبلت «خديجة» هذه يومًا، أمه من الرضاعة «حليمة السعدية». . دقات ذات عنف وتتابع على باب بيته، ويفتح الباب لطاعنة عجوز ضعيف بلغ بها شطف العيش مبلغه، وهي تنادي بقلق، ولدي. . أين ولدي؟ أين محمد؟ وأخرست المفاجأة جميع من شاهدوها أو سمعوها، إلا شخص المصطفى الذي جاء من الداخل مسرعًا ومرحبًا، وهاشًا باشًا، فاحتضنها وقبل يديها وهو يقول لخديجة التي تسمرت في مكانها: يا خديجة. . إنها حليمة. .إنها أمي، وتملأ البهجة وجه خديجة ويشع نور الطمأنينة، ليكسو وجه حليمة، ويسألها رسول الله بعد أن فرش لها بعض ملابسه وأجلسها: وكيف الحال يا أماه؟ قالها فردت في ذل وانكسار، وأي حال يا ولدي. . لقد شحت السماء، وأجدبت الأرض، وجف الضرع وهلك الزرع، ومن أجل هذا كله جئتك يا ولدي. !!!

وانتفض المصطفى ليسأل خديجة: وماذا عندك لأمي يا خديجة؟ وترد على الفور. . عندنا الخير كل الخير إن شاء الله. . عندنا المال والشياه

والجمال، وسرعان ما بدأت تجمع ما أحبت من عطاء لأم المصطفى ﷺ وتكريما لها، وإرضاء له.. وتمضي الأيام كئيبة متثاقلة، فلقد اشتد أذى المشركين على النبي وصحابته، ودخل رمضان في العام العاشر من مبعثه، وفارقت أم المؤمنين وودعت، وتركته حزينا مهموما، ولقد ضاعف من شعوره بالمرارة، موت عمه أبو طالب، في نفس العام، والذي سمي بعام الحزن... وشمله حزن كسير أليم، فبفقدها انكشف ظهره لسفهاء مكة وشواذها، وتحمل فوق طاقة البشر، الكثير من العنت والصد والإنكار والأذى إلى أن لاح نور فجر الخلاص، وهَلَّ هلالُ الهجرة المباركة، من مكة إلى المدينة المنورة، تلك المدينة التي باركها ربها، وعطر ريحها، وبارك مكانها، وأكرم ضيوفها ومحبيها، وإلى أن جاء نصر الله، والفتح، وهيمنة لا إله إلا الله محمد رسول الله..

أرأيتم كرم خديجة السخية والأصيلة؟ أرأيتموها بأمجاد عطائها واسترضائها، أرأيتم بما فسر المفسرون قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ⦗٦⦘ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٧].

إنهم يجمعون على القول: بأن الله امتن على المصطفى بهذه، الهبات الطيبات، فأواه من يتم وذل، بحماية خديجة وأبي طالب، وهداه من حيرة وقلق، بالوحي بدين جديد، وأغناه من عوز وفقر، بمال خديجة رضي الله عنها وأرضاها، زوج السؤدد والكمال، والكبرياء المتواضع، والود النبيل ...

ترى: أي فراغ مخيف هذا الذي تركته أم المؤمنين خديجة برحيلها؟ بل أي حزن هذا، الذي لف دار محمد - ﷺ - ؟ بل أية ليلة تلك التي تركته فيها وأولادها حواليها، دامع العين كسير الخاطر، مضطرب المشاعر

والأحاسيس؟

هل نقول: إنـها بحق ليلة نابغـية؟ لا وألف لا.. لأنهـا كانت في الطول أطول، وفي المشـقة أشق وأعنف وأقسى ... إنها كـانت ليلة بلا نهاية، كانت كئيبة مجـدبة مظلمة موحشة ... وفي السحر أحس ساكنو الدار قرب الـرحيل، وقرب الفـراق ... وأنّي لهم أن ينامـوا أو يهدءوا، وكيف ومشاعر القلق تسيطر وتهيمن وتحلق وتكتم الأنفاس؟

وحانت اللحظة الحرجة والخاطفة والنظرة الأخيرة والمودعة، ففتحت عينيـها ونظرت إلى بناتـها وإلى رسول الله، ثم أطبـقت عينيـها راضـية مرضـية، لقد صـعدت الروح إلى خـالقها، وسكن وعـاؤها الذي طالما أعطى لدين الله ورسوله المختار، وهنا فاضت عيناه بدموع الفراق الطويل وإن امتلأ قلبـه بنور الاستسلام الراضي بقضـاء الله وقدره العظيم ... أما بيتها وبناتها فلقد ودعاها، بكل ما يليق بوداعها من جلال وإجلال وحب واعتزاز وتكريم ... عن أبي زرعة عن أبي هريرة قال: أتى جبريل النبي، ﷺ يوما فقال: يا رسول الله، هذه خديجـة قد أتت معها إناء فيه إدام - أو طعام أو شـراب - فإذا هي أتتك فـاقرأ عليـها السلام من ربـها ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب ... [أخرجه البخاري](١/ ٢٨٧) أحـاديث قدسية، وزاد الطبراني والنسـائي: فقالت: هو السلام ومنه السلام وعلى جبـريل السلام وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته ...

تقول عائشة أم المؤمنين: رضي الله عنها:

ما غرت على امرأة، ما غرت على خـديجة، من كثرة ذكر الرسول

إياها، وفي رواية ثانية تقول:

ما حسدت امرأة قط، ما حسدت به خديجة، حين بشرها رسول الله ببيت في الجنة..

فلقد تزوجني بعد موتها بثلاث سنين، وأمره جبريل أن يبلغها بشرى ...

[١/٢٨٩ الأحاديث القدسية لمكتبة الإيمان للنشر].

سلام عليها في الأولين، وسلام عليها في الآخرين، وسلام عليها في كل وقت وحين ...





زوج نبي

مع عائشة بنت أبي بكر

◘ • ◘ مع عائشة أم المؤمنين وابنة الصديق ◘ • ◘
زوج رسول الله محمد ﷺ

لم تسجل كتب السير والقصص والأخبار، ثناء على غيرها من أمهات المؤمنين، في مجالي الفقه والحديث، ذلكم أن المصطفى ﷺ شهد لها بالسبق، والتمكن فيها دون سواها، حتى إنه طالب المسلمين بأن يأخذوا نصف دينهم عنها ...

إنها شهادة تسمو على كل شهادة، فضلا عن أنها تمثل أولوية وسبقًا غير مسبوق أبدا. .

«عائشة بنت أبي بكر» كانت أصغر نساء رسول الله عمرا، وهي أكثرهن دراية بفقه الدين، وأكثرهن رواية للحديث الشريف، كان رواته عنها يقولون: «حدثت الصديقة بنت الصديق»...

«عائشة» هذه كانت تمثل في بيت النبوة مصدر أنس وراحة لرسول الله، وأدركت مبكرا هذه المكانة وهذه المنزلة، من قلب رسول الله، فأعطت نفسها الحق حينا في الدلال والتدليل، وأحيانا أخرى في التجاوز المحسوب، والمقدر بينها وبين بعض أمهات المؤمنين. . .

«عائشة» هذه ظلت في جوهر تصرفاتها، المرأة بطبيعتها وغرائزها، فهي التي تغار من أم المؤمنين خديجة بعد موتها!!! لقد سألت رسول الله حينما كان يثني عليها، ألم يبدلك الله خيرا منها؟ فجاء رده لطمة مسكتة مخجلة: كيف وقد أغنتني من فقر؟ وكيف وقد كانت أول من آمن

بنبوتي؟!!!!

عائشة تكيد لأم المؤمنين «مارية» وفي قصة التحريم كان لها «ولحفصة بنت عمر» دور وأي دور، كما كان لهما معا دور وأي دور، في السخرية من أم المؤمنين، «أم سلمة» لقصرها، ولجرها بقايا من رباط من قماش أبيض من خلفها.. إلى أن نزل الوحي بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١]. [ص ٢٨٧، من أسباب النزول].

«عائشة» هذه كان لها في ثورة أمهات المؤمنين، على رسول الله، طلبا لزيادة النفقه، دور وباع كبير وخطير، ولقد ناصرت معاوية على علي بن أبي طالب عند صراعهما يوم الجمل، لأنها لم تستطع نسيان رأيه في موقفهن، ونصحه لرسول الله يومئذ بطلاقهن وتسريحهن، ومع شرورها وميلها هذا، كرمها علي وردها إلى بيتها في حراسة ابنه ورعايته، بعد انتصاره في المعركة!؟! ألم نقل إن عائشة كانت - هي أم المؤمنين - المرأة بكامل طبيعتها ومشاعرها وغرائزها؟ لقد انتصفت السماء لرأي علي بن أبي طالب: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

نقول: ومع هذا كله ظلت كلمات علي للرسول، غصة في الحلق لها مرارة لا تنسى.. وإنها للبشرية في شخص عائشة المحبة والقريبة من قلب رسول الله، تفصح عن نفسها في كل الظروف، لقد قالت: كان

رسول الله إذا أراد سفرًا أقــرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمــها خرج بها معه، وكان يقــسم لكل امرأة منهن يومها وليلتها غيــر «سودة بنت زمعة» فلقد وهبت يومهــا وليلتها لعائشة زوج النبي، تبــتغي بذلك رضى رسول الله»...

[المنهل الحديث (٣ / ٢٣)].

عائشة هذه.. كانت محــبوبة المصطفى بشكل بين، وبصورة دفعت بعض أمهات المؤمــنين للتنازل لها عن أيامهن ولياليــهن، تحقيقــا لسعادته وكسبًا لثنائه ومن هنا كان تضرعه في دعائه، بعد أن عدل بينهن على قدر الطاقة:

«اللهم هذا قســمي فيما أملك، فلا تآخــذني فيما لا أملك» مــشيرًا إلى استــحالة التــحكم في الميل والحب والشعــور، ... صلى الله عليك يا رسول الله، وعظيم أنت في بشــريتك، وعظيم أنت في نبوتك... أرأيتم زوجا يصارح بمشاعره وأحاسيسه كرسول الله؟

لقــد وفر العــدالة المادية في القــسمــة بين أزواجــه، ولكنه لم ولن يستطيع توفيرها في عالم المشــاعر والميول أبدا... ولعل أئمة الوعظ لدينا، يقفون طويلا عند هذا الموقف، ليتعلم كل المؤمنين منهج الله وشرعه، في مجال العــلاقة بين الزوجين، بدلا من تيه الضحالة أو تفاهة مــا يعرضون كل جمعة على الناس!!!

حدث خلاف بين رسول الله وعائشة، فاحتكما لأبي بكر، فما كان منه إلا أن صفعها بعنف، حينما قاطعت الرسول وهو يتحدث.. فغضب المصطفى وقال له مــستنكرا: ما كان أغنانــا عنك يا أبا بكر، ثم مال على

عائشة فاسترضاها حتى رضيت وهدأت ... ترى: هل كان هذا المسلك من رسول الله، سلوك الأزواج المثاليين، أم كان سلوك الأنبياء الصالحين...؟ وإنها لدروس يتعلم الكثيرون منها الخلق القويم النبيل ... وتمر الأيام مسرعة، لتقف بنا عند حديث، الإفك وزمرة المنافقين، لنرى عائشة هذه المحببة والمدللة، تغييراً رهيبًا من رسول الله، ويتملكها الأسى الحزين، وهيبة المجهول، وينطلق كذب المتآمرين بلا جناح، في محاولة فاجرة، لتشويه سمعة النبي وبيته، ويظل المصطفى شهرا كاملا، في معاناة خانقة انتظارا للوحي، حتى يخرجه من ضيعته وحزنه وقلقه، ويستجيب لطلبها في التوجيه إلى بيت أبيها، ويذهب إليها هناك، وأمام أبويها يقول لعائشة بعد جلوسه وتشهده: لقد بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت آثمة فاستغفري الله، وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ووزره تاب الله عليه. . . .

قالت أم المؤمنين عائشة: يعلم الله براءتي فلترد يا أبي القول على رسول الله فتمتم بكلمات: وبم أرد؟

قالت عائشة، والله إنني لبريئة، فردي على الرسول قوله يا أماه. . فقالت وبم أرد؟

فاشتد عليها مرضها ووجعها وحزنها ... وتقول أم المؤمنين: وانتحيت جانبا فاضجعت ونمت. . باكية منتحبة، والله ما كنت أظن أن ينزل في حقي قرآنا يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله في بأمر يتلى...

وهنا تغشى الوحي رسول الله، وما إن انتهت الرسالة، حتى وجه الرسول حديثه لعائشة هاشا فرحا. . يا عائشة: أبشري بالبراءة، فلقد جاءني جبريل بها، وبدأ يتلوا آيات من سورة النور.

قالت أم عـائشة: قومي واشكري رسـول الله يا ابنتي، ولم ترد.. وكررها أبو بكر فـقالت والألم يعـتصرها عـصرا: إني أحمـد الله وحده وأشكره، فـهو الذي برأني من فـوق سبع سـماوات... [أسبـاب النزول للنيسابوري، طبعة لبنان ص ٢٤٢].

ألم نقل: إن عائشة تمثل المرأة أصدق تمثيل، بكل خصائصها، وبكل غرائزها؟ لقد نشأت في بيت أبي بكر؟ بما يعنيه من كامل الإيمان، وصدق اليقين وصفاء الروح، والقدرة - بلا حدود - على التضحية والفداء، كان رسول الله يقـول عنها: إنها ابنة أبي بكر... أو ليست عـائشة أخت ذات النطاقين أسماء؟ بعطائها بمخاطراتها بصـمودها؟ أليست عائشة أخت عبد الرحمن ؟ وعمة عبد الله؟

إنه بيت فـريد في عطاء القـيم والتضـحـيات، وإنهـا لزوج لطيف المعـشر، نقي السـريرة، طاهر الذيل، وليكن حديـث ابن عبـاس معـها وعنها، حينما زارها فأذنت له وهي تودع الدنيا.

ليكن حديثه هذا أفضل ختام:

سلم بعـد دخوله عليهـا وهي تحتـضر ثم قـال لها: البـشرى يا أم المؤمنين، فما بينك وبين أن يذهب عنك كل أذى ونصب، فتلقي الأحبة: محمـدا وأصحابه، إلا أن تفارق الروح الجـسد.. لقد كنت أحب أزواج رسول الله إليـه، ولم يكن يحب إلا طيبا، فـأنزل الله تعالى براءتك من فوق سـبع سماوات، وليس في الأرض مـسجد إلا ويتلى فـيه آناء الليل والنهـار، وبسببك يـا أم المؤمنين كانت رخـصة الله بالتيـمم، ووالله إنك لمباركة، فقالـت له: «دعني يا ابن عباس من هذا كله، فوالله لوددت أني كنت نسيا منسـيا».... ورحم الله أم المؤمنين عائشة، ورحم معـها سائر أمهات المؤمنين.. [أسباب النزول للنيسابوري ص ٢٤٤] .



المرأة عدوة نفسها وزوجها النبي

امرأة نوح ، وامرأة لوط

المرأة عدوة لنفسها ونبي الله زوجها

آيات ثلاث ختم الله بها سورة التحـريم، وضرب بها المثل للكافرين وللمؤمنين، مؤكدا أن الالتصاق بالنبوة لا تمنع حسابا، ولا تخفف عذابًا، بل هي أدعى لتوخي الصحيح والمشـروع، كما أن رفض السلوك الشرير، يوقظ الحس والضمير، ويحيي الأمل في رحمة الله، وفيض القبول، ... أليس هذا الرفض أمارة تقوي ؟، أليس هذا الرفض مظهرًا لمحاربة المنكر، وفي حدود الطاقة؟

بسم الله الرحمـن الرحيم: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٠ - ١٢].

على أن خيانة الزوج النبي، إنما تعني لدى الكثير من المفسرين عدم التصديق وعـدم الطاعة، ولا تندرج تحت بند السلوك النجس، والآثم لا قدر الله ...

وإذن لم تكن زوجـة نوح، ولا زوجة لوط، بـارة وفيـة أو طيعـة ومطيعة. . بـل كانت كل منهما نشـازًا وعصيانا، ولذلك لم تشـفع لهما القرابة من الأنبياء وحق عليهمـا غضب الله، وقيل لهما: ادخلا النار مع الداخلين ...

لقد حق عليهن سخط الله وعذابه، لأنهما في ظلال معايشة الأنبياء، لم يستفيدا من أجواء هذه المعايشة الطاهرة والوفية والبارة، فغلبت عليهما نزعة العقوق، والعناد والإضلال، والكذب وهوت بهما للحضيض!!!

إن هذه المعايشة تثمر عادة الطاعة الطيبة، يحكم السمو في السلوك النبوي، فما بالهما تقفان هذا الموقف الخاطئ والضال؟ إنها الفطرة، والخلق والطبيعة المؤذية الباغية، والتي رفضت النصح، ولين العشرة، فخرجت كل منهما من إطار الأهلية، لتسقط في ظلمات المعصية.

١- بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

٢- ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الحجر: ٥٧-٦٠].

٣- ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

٤- ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ٧٥، ٧٦].

ونقف عند لفظ «الأهل» الذي تكرر وروده، باحثين عن معناه ومغزاه... إن .أهل المرء، قرابته وذوو عصبته، وتطلق على الزوج بخاصة أحيانا كما تطلق محببة ومؤيدة ومطيعة، ممن لا يخرج سلوكهم عن

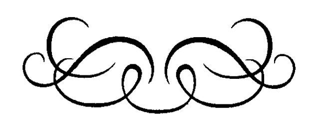
سلوكه، بأي حال...

١- انظر إلى الحوار الرائع بين نوح وربه، بعد عقوق ابنه، وغرقه لتلتمس المقصود بالأهل:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٥، ٤٦].

٢- وانظر إلى موقف لوط من قومه، ليتأكد لديك الحق الكامل بمفهوم اللفظ: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧ - ١٧٣].

الآيات المطروحة للاستدلال، اعتبرت ابن نوح بعد عقوقه لأبيه، ليس من أهله، لأن سلوكه لا ينتمي بأي حال للسلوك السوي لنوح، ومن آمن معه بالله... كما اعتبرت زوج نبي الله لوط، من غير أهله أيضا، لأنها اختارت الضلالة بمحض إرادتها، فشذت عن الجماعة المؤمنة الموحدة، وابتعدت تماما عن الأهلية الخيرة، ونالها ما نال العصاة الآثمين من عذاب، وتعذيب وتدمير وسوء مصير...





المرأة
عدوة ، حاقدة ، متآمرة

١ - بئست الجارة العوراء بنت حرب « حمالة الحطب »
٢ - بئست اليهودية الغادرة التي دست السم لرسول الله

المرأة عدوة ، حاقدة ، متآمرة

أ - «وبئست هذه الجارة، جارة للمصطفى ﷺ» :

إنها زوج أبي لهب وحسب: يستوي في هذا السوء والقبح، أن تكون جميلة، أو أم جميل!!! فهو اسم على غير مسمى!!! أو قل: إنه اسم أطلق على التضاد والنقيض!!!

لقد اتسم مسلكها تجاه رسول الله: محمد بالعنف والشراسة، وبحمى الكراهية والعداء، فكان جوارها له أسوأ جوار، فلقد اعتدت وتجاوزت ثم بالغت في الإيذاء والإضرار، حتى وصلت به حدا لا يحتمل ولا يطاق...

وضعت في طريقه الشوك، وألقت عليه النجس، وأسمعته أسوأ ما يسمع من تطاول وسباب، !! وظل ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ الجار الصابر والمتعالي على الصغائر، والمفوض الأمر كله لله رب العالمين والمستضعفين، وحسبها أن تكون زوج أبي لهب، بسعار عداوته، وغيرته وحقده !! وحسبها أن تتفكر لموجبات القرابة، ولحقوق الجيرة...

وحسبها وزوجها معها، أن يخضعا للعنات، ما دامت السماوات والأرض، وما دام القرآن بحفظ الله يتلى ويقرأ. . .

اشتد إيذاؤها فاشتدت معه ضراعة رسول الله ونجواه، وهبط عليه جبريل، وبسورة تسجل وزرها، وقبح صنيعها، وعنف أذاها، وسوء مصيرها!!!

لقد توعدها وزوجها الشيطان معها، بمصير لا تحمد عقباه أبدا، فلقد جسدت الآيات خطاياها، ووصمت سلوكهما معا، بشر ما يوصم به سلوك آثم شرير وموزور!!! وتعالوا بنا نطالع « أسباب النزول للنيسابوري» أسباب نزول «سورة المسد وتبت...»

روي البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: حينما نزلت ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾ [الشعراء: ٢١٤] أتى رسول الله الصفا فصعد عليه ثم نادى: يا صباحاه، فاجتمع إليه الناس، من بين رجل يجيء، ورجل يبعث رسوله، فقال ﷺ: «**يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي.. لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أتصدقونني؟**» قالوا: نعم، قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد...**» فقال أبو لهب: تبا لك!!! ألهذا دعوتنا!!! فأنزل الله تعالى: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)**﴾ [المسد]، [ص ٣٤٥، من أسباب النزول].

وحتى تدرك ضراوة غضب الله على حمالة الحطب، وعلى زوجها الطاغية، تعرف على المعاني، لبعض كلمات السور، «تبت: هلكت وخسرت وخابت»﴿**مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ**﴾: لم ينفعه، ولم يدفع عنه العذاب والهلاك والخسران.. ﴿**فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ**﴾ : أي حبل قوي وعنيف وفسرها البعض بقولهم: حبل من شوك مميت، [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف].

وتتحدث كتب السيرة والأحاديث، «عن صبر رسول الله وتحمله، بل عن صموده وسمو رحمته... إذ لم يزده إيذاؤها إلا تسامحا، وعفوا

فهي جارة، وللجار حقوق تصان، وتحفظ حتى ينعم المجتمع بطمأنينة العيش، وطيب العشرة، وجميل المودة، ونبل الألفة...

«وخسئت حمالة الحطب العوراء بنت حرب بن أمية، سليلة الأذى والشر والعدوان». [ص ٣٣٦ من مقدمة فتح الباري طبعة الريان].

لقد وردت أحاديث عدة، تؤكد حقوق الجار على جاره، وكيف يتسامى هذا الحق الواجب، إلى هذا الحد من التخويف والتحذير...

يقول المصطفى ﷺ: «**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن**»، قال صحابته، من هذا يا رسول الله؟ قال: «**من لا يأمن جاره بوائقه**» أي عدوانه، وأذاه وشره!!! [رواه الشيخان].

ولنقف عند حديثه الذي رواه الإمامان أيضا حتى نزداد بصرا بحق الجوار على المؤمنين:

«**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**» وصدقت يا رسول الله...

أرأيتم كيف كان يواجه الرسول المصطفى ضراوة هذه الحاقدة الكارهة الضالة حمالة الحطب؟!!!

أي صبر هذا الذي عاناه معها، ومع زوجها الطاغية الشيطان؟

انظروا كيف أصبح سلوكهما وسيلة عظة وعبر ودروس، لجماعة المؤمنين الصابرين، وحتى تكون سندا لطموحات الخير فيهم، وصولا بمجتمع التوحيد إلى الكمال المأمول والمنشود...

أتدرون ماذا فعلت هذه الجارة الشريرة بعد نزول هذه السورة،

وترديد أهل مكة لها، وسخريتهم منها؟.. تحكي كتب السيرة قصتها فتقول:

لقد أقسمت أن تنتقم من جارها.. من محمد ﷺ، وأن يكون انتقامها مضرب الأمثال...

لقد أخذت حجرا صلدا، واتجهت به إليه في مجلسه من صحابته، ورآها الصديق أبو بكر رضي الله عنه، فأدرك الخطر، وخاف على رسول الله من كيدها، وكان يجلس في جواره إلى هذا المجلس، فاضطرب وهب باكيا، ليلقاها فداء لحبيبه المصطفى.. وهنا سأله رسول الله عن دواعي قلقه، وبكائه وخوفه، فلما أبلغه قال النبي: فلتطمئن بالا يا أبا بكر، فإنها لن تراني، وإن غشاوة ستحول بينها وبيني... وعلت الطاغية حمالة الحطب رؤوس الجالسين، وسألت في غضب أبا بكر: أين صديقك يا صديق؟ فسكت ولم يرد فقالت: وهي تتفرس الوجوه: أين هو؟ وكيف يتحدث الناس بشأن حمالة الحطب؟ ثم انصرفت بحجرها، ووزر جديد يثقل جيدها المشدود بحبل من مسد!!!...

وهكذا حفظ الله نبيه، وكتب له السلامة والنجاة، فلم تقع عيناها عليه، وتلك هي الأخرى واحدة من قصص العظات والعبر أو دروس السماء لأهل الأرض أجمعين،

٢- بنت اليهودية الغادرة المتآمرة على المصطفى:

هذه هي المثل الثاني لهذا النموذج الغادر من النساء، في ظلال الأنبياء... إنها يهودية متعصبة حاقدة، رأت في التآمر على حياة رسول الله محمد ﷺ وسيلة وغاية، حتى يهنأ قومها، بعد أن تنكروا لمعاهداته

معـهم، ومالوا إلى الخسة والغـدر، فأمكنه الله منهم، وكشف سـترهم، وكتب النصر عليهم...

لقد عرفت طيبة قلبه ونبل تسامـحه وكرم تواضعه، كما عرفت عنه صدق الطوية، وحسن الخلق... فدخلت عليـه بلحم شاة كهدية، وبعد أن دست له السم فيـها، وقبل الرسـول هديتها، ... ولـما هم بالأكل منها، نزل عليه الوحي مـحذرا، وكان مـا كان... لقد تصـورت أن غدرها لن تكشفه أرض أو سماء، وأنها بهذا المسلك ستريح أهلها وقومها، وكذب ظنها وخاب تآمرها...

لقد أخطأت في الحـساب، وأخطأت في فهم قوله تعـالى: «وطعام الذين أوتوا الكتـاب حـل لكم» فـهـمت أن رسـول الله سـيـأكل اللحم المسـمـــوم، وتناست أن حـامـيــه رب العـالمين، رب السـر ومـا هو أخفى... تناست أن سلوكها سَيُبْقِى على درس العظة في سلوكيات اليهود الذين لا عهد لهم، ولا أمل في صدقـهم، ولا أمان لهم... ولكن يبقى سـؤال هام: هـل يمثل سلوك هذه المرأة، سـلوك جنس ضـعـيف ناعم ومظلوم؟ ونترك الإجـابة لمن عاشوا في هذا الوهم، لقصـور فهم ووعي وبصر، بحقائق الأمور!!!





نساء في حياة رسول الله محمد ﷺ

نساء في حياة رسول الله ﷺ

أ - «الخنساء» (تماضر بنت تميم):

صحابية صالحة بارة ووفية ومؤمنة وصابرة... إنها «تماضر بنت تميم»، التي أسلمت مع قومها، والتي لقبت بالخنساء لجمالها، نشأة في رعاية والد رحيم، فأحاطها بموفور حنان وحب... إنها امرأة مخضرمة، إذ أنها عاشت في الجاهلية، وعاشت وماتت في الإسلام، أي أنها عاصرت العصر الجاهلي، وعاصرت العصر النبوي...

وردد الزمن الكثير من قصصها، وسجل التاريخ في صفحات بيض وفاءها النادر لأخويها، «صخر، ومعاوية» وحفظ الناس روائع رثائها فيهما معا، غير أن من يخضع مرثياتها للتحليل، والنقد والمقارنة، يجد أن رثاءها في صخر، كان الأصدق وكان الأجمل وكان الأروع، ووراء هذا أسباب ودوافع، دخلت الإسلام بعد أن أشرق نوره، وحسن إسلامها، بل قل: إنه إسلام من عايش الجاهلين بقيم السوء والشر فيهم، وإسلام من عايش العصر النبوي بسماحته ونبله وترفعه، فدخلت الخنساء الإسلام عن فهم وبصر وإدراك، إذ وجدت فيه ضالتها وأمانيها...

كانت إحدى الصحابيات المقربات، من قلب رسول الله وخواطره، وكان يفسح لها في مجلسه، ويستمع إلى شعرها الباكي، في رثاء «صخر» أخيها فتبكيه، بل وكان يطلب منها سماع المزيد والمزيد، من شعر خلد الراثي والمرثي معا.. ترى.. أي شعر هذا الذي نفذ إلى قلب

رسول الله فأشبه وأطربه؟

يقول النقاد: إن الصدق الذي غلف مرثيـاتها، كان سر الأسرار في التأثير، فقديما قالوا: ما خرج من القلب حل في القلب.. إنهم يقصدون أن عنصـر الإعجـاب والخلود، يرتبط كلية بهـذا الصدق ولولاه لأصـبح شعرا مطلي، وبلا طعم وبلا حياة، ونضيف بأن القدرة على اختيار اللفظ الموحي، وإحكام صياغـة الفكرة، والتمكن من التمثيل والتـصوير، كلها عناصر رئيسيـة لصنع التأثير والإعجاب، ولنستـمع إلى نموذج واحد لهذا الشعر المعبر والحزين، وهي تتحـدث عن فراغ خطير تركه «صخر» أخوها بموته وفراقه:

وإن صـخـرًا لتـأتم الهـداية به كـأنـه علـم في رأسـه نـار

وإن صـخـرًا لحـامينا وسـيدنا وإن صـخـرًا إذا نشـتو لنحـار

حَـمَّـال ألوية، هـبـاط أودية شـهـاد أندية لـلجـيش جـرار

أبيات ثلاثة من قصيدة طويلة، فيها ما فيها من تزاحم صفات الخير والكمال، والبطولة والـكرم والسؤدد والسيـادة، والدأب والإيناس، فهل لاحظت هذا الجرس الموسيقي العذب، أو ما نسميه بلاغيا حسن التقسيم؟ وبم وصفت هنا أخاها؟

أ - هو - كـما تراه - علم الهـداية بل زعـيم الهداة، بل هو أشـد الخالدين أجمعين...

ب - وهو - كما تراه - صاحب فضل على القـبيلة، وصاحب سيادة ومضياف وسخي وكريم...

جـ - وهو - كمـا تراه - مقـاتل شريف لا يشق له غـبار، جـميل

المعشر حسن القيادة والحركة... ، ونسأل مع السائلين: وماذا أبقيت أيتها الشاعرةالساحرة لغير «صخر» من سمات؟

ولربما سأل سائل: ما الذي يبكي المصطفى حين سماعه شعرها؟ بل وما السر الدفين وراء طلب الاستماع إلى المزيد منه؟ حينما كان يقول لها، ودموعه تملأ وجهه: هيه يا خناس؟... أي زيديني من هذا الرثاء الباكي الحزين....

نحن نرى أن الرسول قد أكبر فيها صدق الوفاء ونبل التقدير، ومرارة الخسارة، بفقد صخر هذا وموته.

وإنها بكل المقاييس لصادقة، وإلا ما هزت الناس جميعا، بمرثياتها تلك انظروا إلى يقين هذه الصحابية الجليلة، وهي تعلق بكلمات معدودات، على نبأ استشهاد بنيها الأربعة، إثر قتلهم مع مبعوث خليفة رسول الله وصحابته في معركة القادسية...

«الحمد لله الذي شرفني بموتهم، وأسأل الله أن يجمعني بهم، في مستقر رحمته»..

أية صحابية تلك؟ وأية مؤمنة صابرة تلك؟ وأية امرأة حديدية الإرادة تلك؟ وأين اختفى ضعف المرأة المزعوم حينئذ ليفسح مكانه للصلابة والصمود والثبات الوقور، هل هو الاستعداد الفطري؟ هل هو كمال الأخذ، عن دين الله في ميدان الصبر؟

قد يكون هذا أو ذاك، بل قل وقد يكون هذا وذاك أيضا...

رحم الله «الخنساء» ورحم الله بطلة الوفاء، ورحم الله المرأة التي كان يسعد رسول الله بلقياها، والتي كان يباهي رسول الله بإيمانها، رحم

الله المثل الطيب للمرأة، ورحم الله هذا النموذج النادر، في دنيا المؤمنات...

٢ـ هند بنت عتبة زوج أبي سفيان:

جاهلية عنيدة قاسية القلب، صلبة العود، مرة الرد، غليظة الطبع، دخلت الإسلام مع أفواج الداخلين، في العام الثامن يوم الفتح... دخلته بهذا الرصيد الضاري من الخلق والسلوك، وحسن إسلامها بعد دخولها، وإن ظل الكبرياء الجاهلي وراء صراحتها الفجة مع رسول الله ﷺ، إذ لم تنس ماضي الصراع، ولم تندمل جراحها بسهولة حتى بعد إسلامها... بل وبعد ثأرها، بل وبعد مبالغتها يوم الثأر الأليم...

في غزوة بدر الكبرى، صرع أبطال الإسلام وعلى رأسهم سيد شهداء أحد: «حمزة» ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ أباها وأخويها، فاستأجرت عبدا حبشيا لقتله، وأغرته بتحريره من ذل الملكية والاستعباد، نظير قتل هذا البطل الصنديد، وكان لها ما أرادت يوم أحد، ووصل بها الحقد إلى درجة خانقة ضارية، فشقت بطنه، ومثلت به، وأخذت كبده فلاكتها في فمها ثم لفظتها... ولقبت يومها «بآكلة الأكباد»!!! [أسباب النزول للنيسابوري]

ومع أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله، فلقد ظل في نفسها الكثير الذي أفصحت عنه، وبلسانها يوم بيعة رسول الله للنساء، يوم فتح مكة.....

انظروا إلى تعليقاتها على البيعة يومئذ...

يقول المصطفى للنساء – وهي معهن بايعنني على ألا تزنين ولا تسرقن، فتعقب بسؤال مستنكرة: أوتزني الحرة؟

ويقـول المطصفـى للنساء ـ وهي مـعـهن ـ بايعنني على ألا تقـتلن أولادكن، فـتعـقب بما أغـضب رسـول الله، حتى ظهـر الغـضب على وجهه!!!

ربيناهم صغارا، وقتلتهم أنت كبـارا. . في إشارة جارحة لمقتل أبيها وأخويها وغيرهم من عتاة أهل مكة، ورؤوس الكفر فيها يوم بدر...

واتسع صدر نبي الله لهـفواتها تلك، كـما اتسع بالرحمة لكثـيرات غيرها، وها هي بعد أن حسن إسلامها، واندملت جراحها، تشق الطريق نحو إيمان رشـيد حتى أنها تـسأل رسول الله عن حكم من احتـجزت أو سرقت من مال زوجها البخـيل الشحيح، ما يسد عوزها وأولادها، وبلا إذن منه، فأذن لها المصطفى، شريطة عدم التجاوز لحدود الحاجة وحدها، وبلا تبذير أو إسراف ...

كانت زوج أبي سـفيان، ألد أعـداء رسول الله ودعـوته، حتى يوم فتح مكة، إذ جرفه تيار الإيمان فأعلن إسلامه، وفي ظروف لم ينس فيها كبرياء جاهليـته، وأشبع الرسول نقصه فـأعلن للناس: «من دخل الكعبة فهو آمن، ومن دخل دار أبي سـفيان فهو آمن» وبهذه المكرمـة المحمدية، هدأ أهل مكة، واسـتـسلموا لجـيـوش نبي الله، ثم تدافـعت موجـاتهم للدخول في الإسلام...

إنها أم «مـعاوية بن أبـي سفيـان» مؤسس دولة ومملكـة الأمويين، والحكيم البارع والسـياسي الداهية، وصـاحب العبارة المشهـورة، لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، لأنهم إذا شدوا أرخيت، وإذا أرخوا شددت...

رحم الله «هند بنت عتبة» وغفر لنا ولها، فلقد آلمت رسول الله يوم أحد، وكانت لا تزال على كفرها وجاهليتها، إذ إنها أخرجته عن صبره المعهود، حزنا على عمه «حمزة» سيد الشهداء، فأقسم إن مكنه الله من أهل مكة، ليقتص بقتلاهم... ولكن سرعان ما عفا وصفح . . . .

جاءه في صلاة الفجر مسلم صلى من خلفه وقد أخفى وجهه ليطلب منه الأمان، فأمنه نبي الله، وما إن كشف وجهه حتى عرف فيه «وحشيًا» قاتل عمه «حمزة» فطلب منه بعد تأكيد أمانه، أن يجنبه ألم رؤياه، حتى لا يحرك طوفان حزنه، وبركان ألمه، وهيأ الله لقاتل حمزة، فرصة التكفير عن خطيئته، فخرج مع الخارجين لقتال مسيلمة الكذاب، وكان هو قاتله والذي أراح المسلمين منه، بل والذي أطفأ بمقتله، فتنة حارقة مدمرة، دفع ثمنها النبي الكذاب وإن سقط بسببها سيل جارف من عظماء الشهداء المسلمين الموحدين حفظة القرآن.

ترى: هل جرى في خاطر هند بنت عتبة وهي تعد العبد الحبشي «وحشي» للثأر من حمزة، أنها كانت تعد من اختاره الله للخلاص من «مسيلمة»؟ يا سبحان الله، إنه عليم حكيم.

جـ - أم حكيم حفيدة الوليد:

صحابية رائدة وعظيمة، سجلت كتب السير اسمها في صفحات من نور . . ولئن سبقتها إلى الإسلام - يوم فتح مكة - أمها فاطمة بنت الوليد، إلا أن دخولها الدين في العام الثامن من الهجرة المباركة، أضاف إلى نوعية المزاحمين في دخوله يومئذ، نوعا له مذاق خاص وطعم مميز . . فلقد انحدرت هذه الصحابية الجليلة من أسرة عرفت ـ قبل الإسلام ـ بعدائها الشديد، وعرفت ـ بعد الإسلام ـ بحبه، والتضحية بلا حدود من

أجله، وهل يستطيع منصف أن يتخطى دور سيف الله المسلول: خالد بن الوليد؟ تكفيه هذه الصفة التي أضافها عليه رسول الله، تقديرا وتكريما...

وإذا كان الوليد بن المغيرة، رأس هذه الأسرة، بعنف خصومته، وشدة كراهيته، وضراوة حقده، وغطرسة كبريائه وعناده، فإن كثيرين من أبنائه وبناته وأحفاده، كانوا لَبِنَاتٍ بناء مجد هذا الدين الجديد، «أم حكيم» كانت واحدة من جيش كراهية محمد، وأصحاب محمد، وربما كان هذا حظها من ميراث جدها، الطاغية المستبد، المتعجرف والمكابر، والذي نزل فيه من القرآن قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ [المدثر: ١١].

ولكن الإسلام الذي دخلته يوم الفتح بعد أمها، ملأ قلبها فأناره بالهدى، وبالخيرات وبالصالحات، وملأ خواطرها، فأضحت كلها رحمة ورأفة، وعطفا، وحنوا على ضعفاء المؤمنين، وسبحان مقلب القلوب...

أم الحكيم هذه، لم تشغلها الفرحة والطمأنينة بنور الله بعد إسلامها عمن سواها، بل اندفعت كالصاروخ الذي يعرف هدفه، نحو زوجها عكرمة بن أبي جهل، تشجعه على دخول الإسلام، ولكن هيهات أن يستجيب!!!

لقد كان هو الآخر صاحب خط أوفر من ميراث أبيه في ضراوة الضيق بالمصطفى، ففاض بالشر والشحناء، والبغضاء، والتطاول على كل المسلمين، وما أن خضعت مكة واستسلمت، حتى سارع هو، مع من كانوا على شاكلته بالهرب من مكة، بل من كل ما يحيط بمكة، وإلى أي جوار يحميه!!!

لقد رفض عكرمه في الأول نصح زوجه، لأن ميزان المحاسبة على سابق السلوك، يصب في خانة إعدامه والتخلص منه... فترك الديار واتجه إلى اليمن رعبا وفزعا وخوفا من رسول الله...

انظروا كيف هيأت «أم حكيم» مناخ التوبة لزوجها الهارب... لقد ذهبت إلى المصطفى ﷺ لتشفع له، ولتؤمن عودته ورجوعه إلى مكة.. قالت - رضي الله عنها وأرضاها -: يا رسول الله.. إن عكرمة زوجي قد هرب منك إلى اليمن خوفا على حياته، فأمنه يا رسول الله... فرد عليها فرحا بما قالت: «هو آمن يا أم حكيم» فطارت من الفرحة، شاكرة لنبي الرحمة لين القلب، وكرم الصفح، ونبل العفو...وانطلقت في الصحراء وراء زوجها، حتى لحقت به وهو على مشارف الحدود مع اليمن، وقد تهيأ للرحيل الأخير بحرًا فنادته:

«أي زوجي، وابن عمي عكرمة، عد معي لمحمد فلقد أمنك، وألحت عليه حتى عاد معها، وأسلم وحسن إسلامه.

استمعوا إلى ضراعتها لزوجها حتى يعود:

لا تهلك نفسك يا ابن العم أبدا، لقد جئتك من عند محمد، أفضل الناس وخير الناس، ولقد عفا وغفر وأمّن فعد معي على بركة الله [من خواطر الدكتور عبد الحليم عويس بالأهرام ١٨/ ١٢/ ٢٠٠٢].

«أم حكيم» سفيرة النساء إلى رسول الله وإحدى المبايعات الصادقات «أم حكيم» التي أشرق قلبها بنور اليقين، تؤثر زوجها بما أحب وتمنى...

«أم حكيم» التي آمنت تزاحم المؤمنين يوم فتح مكة، وفور المبايعة، لتطلب الأمان، والعفو عن زوجها، بما نصف مسلكها؟ وكيف وفي زحام

هذا الفتح يلبي المصطفى مطلبها.

«أم حكيم» وبهـذا الصنيع الطيب، تؤكد على مـثاليـتهـا، وتفردها وحرصهـا على استمرار بيت سـعيد، ليصب في مـيزان العطاء الإيماني، وبلا توقف: موفور أنسٍ ومودةٍ ورحمةٍ...

طيب الله ثراها، ورحم مـعـهـا مـن رحـمت رحم عكرمـة وتاب عليه.. أفلا تكون هذه الصحـابية أهلاً بهذا الصنيع وحده، لكسب حب رسول الله ورضـاه؟ لقد كان يهـزه الوفاء، الوفـاء الذي جسده سلوكـها المثالي لأسر عصرنا الحديث!!!







المرأة
فتنة وابتلاء لنبي

وهي...

دروس وعبر

المرأة فتنة وابتلاء لنبي الله
[دروس وعبر]

نأخذ هذا المثل، من قصة امرأة العزيز، مع نبي الله يوسف عليه السلام، على أن القرآن الكريم أورد بالتفصيل حكايتها، في صورة تحمل اسمه، تكريما له، وإشادة ببرائته، وطهر سجيته ... على أننا سنتخطى في هذا العرض السريع والموجز، المعروف والمعلوم، لنركز على مواطن العظة، وروائع العبرة في دروسها، فالحاجة ماسة للتعرف على هذه وتلك كقدوة تتبع، وكنموذج يحتذى...

لن نشغل أنفسا والقارئ معنا، وبطفولة هذا النبي وغيرة إخواته، والأسلوب القاسي الذي نفذوه، وحتى يخلو لهم ـ كما تصوروا وظنوا ـ وجه أبيهم [الآيات من ٧ - ٩] لن نتوقف عند قدراته التي كانت من فضل الله عليه، في تفسير الرؤى والأحلام، ولن نمسك بالخيوط، التي تصل بنا إلى الخطوة التي بلغها، والمكانة التي وصلها، ولن نجري وراء مطاردات امرأة العزيز له، ومحاولاتها الدؤوبة للإيقاع به، في بحر الخطأ وطوفان الخطيئة، والتي واجهها بالاستعصام بالله، واللجوء إلى عونه وحماه، حتى نجاه من محنته، بشهادة شاهد من أهلها ببراءته وعفته، وإن ظلت وبقيت تلك الآثمة الماكرة بتوعدها وتهديدها، حتى بعد سخيرة نسوة المدينة من سلوكها. . . .

نقول: بقيت امرأت العزيز، وبطيش هواها، وبسطوة سلطانها، وبجبروت طاقات الشر والإثم والمكر والإصرار، بقية قصة القصة كلها،

وكأننا بها قد أعلنت نيتها، قد أعلنت - في نفس اللحظة - الحرب عليه، عن قدرة جَسُورَة وصلبة، وعنيدة غادرة: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [يوسف: ٣٢].

فلنتركها بمكرها ولنتجه إلى ثمار هذه القصة، من عظات وعبر ودروس ...

أ - لعل أول هذه الدروس، ما يعنيه لجوء يوسف إلى ربه، والاستعصام بستره وحماه، فاستأهل ستر الله فعلاً وحماه.

انظر إلى هذه المناجاة، والتماس العون، والخروج من المحنة، والفوز في الاختبار، والقدرة على تخطي الابتلاء الشديد:

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [يوسف: ٣٣، ٣٤].

وهكذا يتعلم المؤمن درس يوسف، فبالضراعة وصدق الاستعصام يكون الأمن والأمان.

ب - الدرس الثاني هو درس الطمأنينة، إلى تدخل السماء لبسط أجنحة الحماية، عند المحن الشداد، فكما تدخلت السماء لإنقاذ المصطفى ﷺ من الهدية المسمومة تدخلت كذلك لإنقاذ يوسف من براثن امرأة العزيز، وحتى يظل العفيف البرئ الشريف، ومن هنا ينمو لدى المؤمن الحق الصادق بمدد الله من العون والتأييد والنصر المبين فالله الخالق المبدع والقادر، قد أعطى الوعد على إطلاقه بنصر المؤمنين.

نصرهم على شهواتهم، ونصرهم في معارك الدعوة ونشر الرسالة،

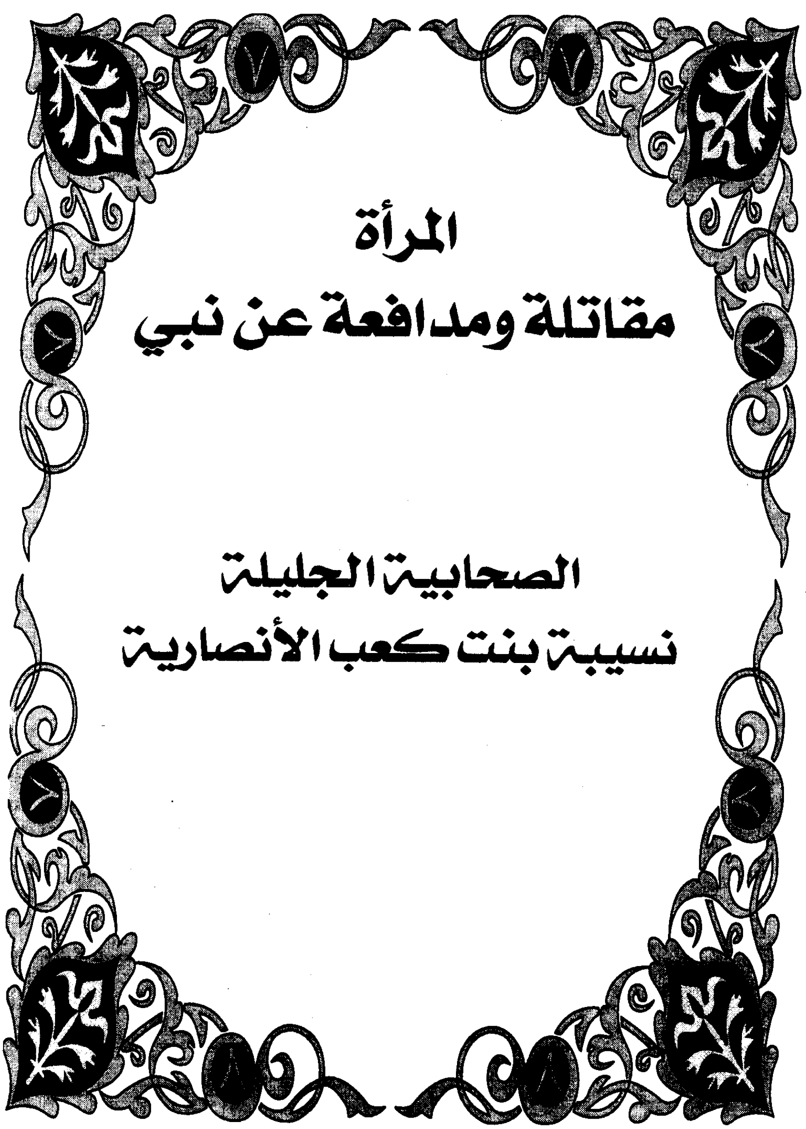
ونصرهم في معارك السلوك والأنفس، وظلمات المحن، وأهوال الشدائد، وصراعات الشر والبغي والعدوان... ولتردد عند كل محنة أو شدة أو زلزلة قول الله تعالى: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

ب - ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

جـ - ﴿الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

وخلاصة الدرس كله: أن الابتلاء خير كله: بخيره وشره، وبحلوه ومره، ما دام المؤمن مفوضا الأمر لله، مرتكزا على ركائز صلبة، من الصبر ومن التقوى، وتلكم هي سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا....





المرأة
مقاتلة ومدافعة عن نبي

الصحابية الجليلة
نسيبة بنت كعب الأنصارية

المرأة مقاتلة دفاعًا عن نبي
أم عمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية

صحـابية جليلة سـجلت اسمـها وصنيـعها في سـجل الخلود ، إذ دخلت دين الله على يد رسـوله مـحمـد ﷺ من البـاب الواسع، دخل زوجها وولداها معها، واستطاعت أن تكتسب ثناء رسول الله على موقفها يوم أحـد، بضبـابه وآلامه، إذ خـالف الرماة المسلمـون أمر رسـول الله بحـماية ظهـر المقاتلين، طمـعا فـي الغنائم والأسلاب، التي امـتلأ بهـا المكان، أثر ضغط جنود الله والإسلام على أعدائهم فزلزلوا زلزالاً كبيراً، وبدا أن المعركـة في النهاية، وأن النصـر بات أكيدًا للمـسلمين، هنا ترك الرماة رسـالتهم، وأمـاكنهم، وشغلوا أنفسـهم، بجمع مـا ترك الأعداء الهـاربين، وانقض «خـالد بـن الوليـد» ومن مـعـه وكـان لا يزال على جاهليته، على ظهر الجيش المنتصـر، فأصيب هذا الجيش بنكسة الهزيمة، وانقلب ميزان المعركة لصالح خالد وجيشه، وانقضت جماعة من مشركي مكة، لتحـاصر المصطفى ﷺ أو تقضي عليـه، ولكن استبسـال عدد من صحابة رسـول الله، في الذود عنه، والقتال دونه، حـال دون تحقيق أمل أعداء الله ...

يقول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ﷺ:

«ما التفت يمينًا أو شمالاً - يوم أحـد - إلا وجدت أم عمارة: تقاتل دوني» «لقد حاربت مع المحاربين الأبطال يومئذ، بل لقد اختارت لنفسها المكان الصعب، والمهمة المخيفة المهلكة، وهي فك الحصار عن رسول الله

ﷺ وحمايته وتوفير سلامته، وهكذا ظلت في دأب وجهد تذود عنه وسط زوبعة من أشداء قريش، آلت على نفسها أن تأخذ بثأر قتلاهم في بدر، وأن تقتل رسول الله!!!

- امرأة تقاتل وسط خضم من الجحيم وبركان من اللهب . .
- امرأة تزاحم طالبي الشهادة في سبيل الله . .
- امرأة لا يقع نظر الرسول عليها إلا ويراها تقاتل . .

من أي عنصر هذا العنصر الذي يمد عروقها بالحياة؟

أين اختفت الرقة؟ أين غابت النعومة؟ أين هرب الضعف؟

لقد حاربت «أم عمارة» مع الرجال يوم زلزال أحد، محققة مساواة للمرأة بالرجل في البأساء والشدة والكرب والحرب، ... لم تنتظر نسيبة بنت كعب، هلال القرن الواحد والعشرين، لتطالب بالمساواة بالرجل، في شغل منصب القاضي والمفتي، بل تخطت هذا الزمن الفسيح، وتجاوزت الأزمنة كلها، وفرضت مساواتها بالرجل في الحرب، في القتال، في النضال الشرس، في الجهاد الشريف، أليس درسا لمن يعيش على الأماني ويمتن على الأحلام والأوهام؟ !!!

لا تعرف كثيرات من قيادات حملة رايات المناديات بحرية المرأة، أو مساواتها أن الإسلام قد أباح للمرأة ما شرع للرجل، ما دام في حدود الفطرة والاقتدار أغاب عنهن أن المرأة كانت مشاركة بسيفها ورمحها ودرعها، في فتوحات الإسلام النساء كنا ينقلن الجرحى ويسقين الظمأى ويطببن المصابين، ويشاركن في القتال، محمد ﷺ يتلفت يمنة ويسرة وقد أحاط به العدو، من كل جانب يوم أحد، فيجد هذه الصحابية الجليلة،

تسد كل فـراغ، وترد كل خطر، لقد رآها تذود عنه بجـسدها، وسيفـها ورمحـها، صابرة على جـراحها ونزيفهـا، وحتى هدأ البركـان واستكان الزلزال، وتنفست الحيـاة من جديد بالأمل، استمعوا إلى حلو حـديثها، وهي تحكي ذكريات الموقف:

[وفي هذه الغزوة - تقصد غزوة أحـد - قاتلت ودافعت عن رسول الله بالسيف والقوس معا].

أفليست هـذه العبارة وحـدها، تسفـيها لهـرب الهاربين المنسـحبين والمذعورين يومئذ؟ بعد وفاتها، يسعد رسول الله بلقاء واحد من أولادها، فيذكر فضلها ويمتدح نبلها وشجاعتها قائلا:

[بارك الله عليكم ورحـمكم أهـل بيت، أمك في الجنة مع رسـول الله]...

أية بشرى وأية فرحة، وأي عزاء لابن يفتقد أمه، وبعد أن افتقد أباه وأخاه.

قـارئي العـزيز: من قبل تحدثنا عـن المخضرمة الصحـابية الخنساء، والتي قالت حينما أبلغت باستشهـاد بنيها في واحدة من معارك الإسلام: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وموعدي معهم في الجنة.

ونتـسـاءل: أليست هذه المرأة أما تحمل في جنبيهـا مشاعر الأمومة برقتها، وتعلقها وحنوها. بل وعطفها وضعفها وخوفها؟

لقد لقـيت ربها راضية مـرضية، بسبب نزيف جـراحها كمـا مات زوجها بسبب نزيف جراحه أيضا، وبعد استشهاد، أحد ولديها في واحدة من الغزوات، أو الفتوحات...

أفليست هذه الأسرة الفريدة، أهلا لثناء المصطفى، ومديحه وبشراه؟

لقد كان وراء منهج الأسرة، منهج دين وطهر عقيدة، ونور صدق ويقين، وإنه لسحر الإيمان، بل قل: عطاؤه لمن يعطيه، وسلام على جيش الخالدين، وفي ظلال الأنبياء...

يتحدث الفاروق عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لصحابة رسول الله، وقد التفوا حوله، وهو يوزع مروطا على نساء المدينة [أكسية من الصوف أو الحرير] فبقى مرط جيد، فقال له بعض الحاضرين: اعط هذا يا أمير المؤمنين، بنت رسول الله عندك [يريدون أم كلثوم بنت فاطمة وعلي بن أبي طالب زوج عمر]. فقال إن أم سليط الأنصارية - أم أبي سعيد الخدري - أولى به منها، فلقد شهدت خيبر وحنينا، وكانت «يوم أحد» تزمر لنا القرب...[المنهل الحديث ٣/ ٧١].

[وهل ينسى مؤمن أبدا «أسماء بنت مرثد» سفيرة النساء إلى رسول الله، والتي شهدت وقاتلت يوم اليرموك، حتى قيل: إنها قتلت خمسة من مقاتلي الروم يومئذ بعامود خيمتها].[فتح الباري (٦/ ٩٣) للعقسلاني]

نقلها عن الدكتورة عبلة الكحلاوي [خاطرة الأستاذة مرفت عبد التواب بأهرام ١٢/ ١١/ ٢٠٠٢] هذه هي المرأة بيقين إيمانها، وصادق عهدها، ونبل عطائها، ومتى؟ في براكين الأخطار، ونيران الزحف ومواقف الخلود العظيم، ولن نزيد ...

أ - روت «عائشة بنت طلحة» عن أم المؤمنين «عائشة بنت أبي بكر

«الصديق» قالت: استأذنت نبي الله في الجهاد فقال: جهادكن في الحج.. وفي رواية أخرى للحديث..: «نعم الجهاد الحج»...[فتح الباري للعسقلاني (٦/ ٨٩) طبعة الريان]..

ب – وروي عن «خالد بن ذكوان» عن «الربيع بنت معوذ»، قالت:

كنا نغزو مع رسول الله ﷺ فنسقي القوم ونخدمهم ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة... [(٦/ ٩٣) من فتح الباري]..

جـ – وعن أنس بن مالك قال: لما كان يوم أحد، انهزم الناس عند النبي ﷺ يقول أنس:

لقد رأيت عائشة بنت أبي بكر، وأم سليم، وإنهما لمشمرتان تنقزان (يقصد تسرعان المشي) أو تنقلان القرب على متونهما، ثم تفرغانها في أفواه القوم... [(٦/ ٩١) من فتح الباري للعسقلاني طبعة الريان].

د - قارئي العزيز: في غزوة أحد، كان نساء المسلمين وعلى رأسهم «عائشة بنت أبي بكر» و«أم سليم» معها، يسهمن في الجهاد ... ترى هل هناك مشاركة بناءة وجادة، تؤكد صدق الإيمان، ونبل التضحية، وبهذا المستوى المثالي الرائد والرائع والقدوة؟ نترك الجواب لنافخات الكير، وحاملات أعلام طلب المساواة بغير حدود، وبغير عطاء مشترك أخاذ، والله الهادي إلى سواء السبيل.





كلمة أخيرة

أو

مسك الختام

كلمة أخيرة أو مسك الختام

قارئي العزيز:

وأنت تطوي آخر صفحات هذه الدراسة المركزة، نرجو ونأمل أن تكون قد تعرفت على المنهج القرآني، بدوافعه غير المعلنة، في تناول دور المرأة في ظلال الأنبياء.

أ - نرجوا أن تكون هذه الدراسة، قد جسدت لك طبيعة المرأة، في رضاها وطاعتها، وفي غضبها وعصيانها. . .

ب - نرجو أن تكون هذه الدراسة قد شكلت لك مردود استنباط، وتصور واستنتاج لهذه الطبيعة في معايشتها للأنبياء، وبمعجزاتهم وخوارقهم...

لقد تحدث القرآن الكريم عن امرأة نوح، وامرأة لوط، في نهاية سورة التحريم، وبلفظ واحد، وصفة واحدة، «فخانتاهما» فجمع لهما من سوء الخلق ما يزيد على الحصر في هذا اللفظ، وفي هذه الصفة، وإن كانت خيانة بمفهوم آخر، يعني الكذب وعدم الطاقة أو صدق الإيمان، **لأن الأنبياء والرسل، منزهون عن النقائص، كرما من الله وتكريما.**

جـ - كما تحدث القرآن الكريم في سورة يوسف، عن امرأة العزيز فلم يخف شيئًا أبدًا، من طبيعتها بل تعرض بالتفصيل لكل ما يجري في خاطرها وإحساسها تجاه نبي الله الصبور المستعصم، **ليؤكد لنا أن المرأة هي المرأة**، وبكل ما فيها من خير، أو شر وبكل ما يضيء جوانب البصر

بها، والمعرفة لخفاياها، في السراء وفي الضـراء ، في الرضا والغضب، والحب والكره، على حد سـواء فالرجال والنسـاء معا، أسـرىٰ لما جبلوا عليه من سجايا أو طبائع . . .

علىٰ إننا نرفض الادعاء الكاذب، بأن المرأة هي الجنس الضعيف، أو الجنس الناعم الرقيق، **وعلىٰ طول الخط، وفـي كل المواقف** فهذا تجاوز مرفوض، وتعميم نأباه . .

١- فلقـد رأيناها في عنادها وفي شـرورها، وفي تجاوزاتهـا، وفي تآمرها، وفي سوء تدبيرها . . رأيناها تحت عـبدين من عباد الله الصالحين المرسلين، مكذبة خائنة... ورأيناها تدس السم لـرسول الله في لحم تهديه له، وإن كانت يهـودية. ورأيناها في علياء الفـتنة والابتلاء والاستـعلاء، آثمة موزورة، **تعترف بالخطأ وتصر عليه في إلحاح عجيب.**

أ - **﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** [يوسف: ٥١ ـ ٥٣].

ب - **﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾** [يوسف: ٣٢].

ألم تدرك هذه العـالية المتـسلطة، أنها بـصراحتـها ووعـيدهـا، قد انحدرت إلىٰ حضيض الحضيض؟!!!

جـ - **ورأيناها في ذروة حقدها** وقبل إسلامها تشق بطن شهيد، ثم تضع في فـمهـا جزءًا من كـبده، وتلـوكه ثم تلفظه، !!!وبعـد أن تمثل

بجسده شر تمثيل!!!

د - **ورأيناها حينما جرفها وزوجها طوفان فتح مكة**، وبنسمات العفو المحمدي، تبدي أعنف تعليقاتها، على كلمات رسول الله في مبايعة النساء، وبلا حياء!!!

والسؤال هل نقول: أنها كلها نماذج لرقة المرأة أو ضعفها؟!!! أم نسمي الأشياء بأسمائها، **لنؤكد أن المرأة كالرجل سواء بسواء، فيها شدة العنف، وفيها فيض الرحمة**، وحاشا لله أن يطغي جانب على جانب أبدا، وتلك موازين السماء بعدلها وإنصافها...

٢- **لقد رأيناها في الجانب الآخر** بإشراقاته وفيوضاته، نسمة النسمات، وبهجة البهجة، بل ونور الرحمة، ومكمن المودة، ومستقى الطمأنينة، وعمار السكن، وأنس السكينة والراحة...

أ - **رأيناها حصن النبي** ودرعه وسيفه ورمحه... وهي خديجة أم المؤمنين، برصيد عطائها الخالد على مر الزمان..

ب - **رأيناها واحة عزاء لرسول الله** تبكيه بصدق رثائها في أخيها، وتستثير حنوه وعطفه وألمه... وهي الشاعرة المخضرمة: الخنساء تماضر بنت تميم...

جـ - **ورأيناها سفيرة النساء** أحيانا لرسول الله، تسأله في أمور الدين، فيسر لفهمها وحسن سؤالها ودقة ملاحظاتها، وشدة حرصها على إسلام زوجها.. وإنها أم حكيم، حفيدة الطاغية الوليد، ببطشه وجبروته، وإشراكه وإجرامه!!!

للآخر، حاجة فطرة، وحاجة حياة، وإذا كانت هذه الحاجة للرجال هامة وأساسية، فإنها للأنبياء، والرسل أكثر أهمية، لأن الدعوة التي تحملوا أمر إبلاغها - وبحكم المعاناة مع الرافضين - في أمس الحاجة إلى شريك، يخفف العبء، ويعين على احتماله، وهذا دور الجنس الآخر. . **بل هو وظيفته الربانية،** في تهيئة مناخ السكن والسكينة، والأمن النفسي والروحي... وإنها لوظيفة تبنى وتثمر وتشيد وتعمر، ولعلها حكمة السماء في تشريع الزواج. .

وفي المقابل تأتي حاجة النساء للرجال، وبعيدا جدا عما تردده ببغاوات المناداة بالمساواة وعلى إطلاقها وبلا قيود حتى إذا جاءت على حساب الحق، أو القدرة، أو التأهل الرباني، أو الاستعداد الفطري!!!
ومتى يدرك الناس جميعا، تلكم الحقيقة التي تقول:

١- **إن حاجة المرأة للرجل،** ليس ورائها طبيعة ضعف، يفتقد القوة، أو طبيعة رقة تعوزها الخشونة والغلظة، فرحمة الله تعالى على هذا التصور القاصر والمعوج والساذج والأبلة. .

٢- إنها حاجة في أدنى أسبابها الإشباع المشترك، وفي ذروة أسبابها الفطرة، التي فطر الله الناس عليها، نشدانا للتكامل المأمول، ومن هنا كان الخروج على قوانين السماء، أو على موازينها في هذا الأمر مجرد عبث وتخبط وضياع...

٣- إن التزام هذه الحدود، واحترام متطلبات الفطرة، وهو الخط الوحيد الذي يسير عليه قطار الحياة بل هو ماء الفيضان، الذي تجري فيه وعليه سفينة الأمن والأمان. .

٤- قارئي العزيز: أليس تطاولا بلا هدف، أن نشغل أنفسنا، بعد هذا كله، بالتساؤل، عمن كان سببا في الهبوط من الجنة؟ هل كان آدم؟ أم كانت حواء؟ ...

ولقد تطوع كثيرون بالإجابة السريعة: إنها حواء، فهي التي شجعت آدم على الأكل من الشجرة، أو أنها كانت المحرضة عليه!!!

دعونا نستعرض بعض النصوص القرآنية في هذا الشأن، وحتى نستكشف الجواب، ما دام مطلوبا، للبعض وبإلحاح، عجيب وغريب:

١- بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

٢- ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

٣- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٠ - ١٢٢].

إن هذه النصوص القرآنية تكاد تنطق حكما ببراءة حواء، لأنها جميعا ـ معها غيرها ـ تصب في ميزان مسئولية آدم، وباسمه خاصة، لأن هذا هو منطوق الآيات ومضمونها، وبلا تحفظ أو استثناء، أو مغالطة...

وخلاصة القول: ما من شك أبدا أن وراء هذا الخروج، ثم الهبوط إلى الأرض، الوسوسة والغواية، والنسيان وقصور عزم في آدم خليفة الله في الأرض، وإنها لأسباب ارتبطت أزلا بمشيئة الله وحده، لتقوم على هذه الأرض، حياة وعمران.. الأرض التي فيها خلقنا، وفيها نموت،

ومنها يبعثنا القادر الأعظم والحكيم، مرة أخرى، إن حواء كانت أهل آدم، وزوجته، وأنسه وسكنه، وهكذا تفرعت وأثمرت تلك الرسالة لتصبح صنيعة الفطرة، ووظيفة الجنس كله، أما ما خرج على هذه الفطرة، أو تلكم الطبيعة، فشاذ ولا يقاس عليه، ويندرج تحت هذا الهوس، الذي يخبو ويعلو، حينا بعد حين، ليدعي أن في قوله تعالى: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ**﴾ [النساء: ٣٤]. شدة ظلم للنساء ونبرة تميز للرجال، وهذا هراء كاذب؛ لأن الاحتكام إلى الواقع القرآني، أو الحديث النبوي الصحيح، يفضح الادعاء ويكذبه !!!

إن واحدة من كبريات سور القرآن الكريم، سميت باسم «النساء» وفي هذا تمييز لهن.

وإن آية فيها قد أغلقت باب الادعاء بقدرة الرجل على توفير العدالة بين الزوجات، عند الرغبة المتجاوزة بالتعدد، وفي هذا تميز أيضا، ﴿**وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ [النساء: ١٢٩].

وهكذا رأينا المثل والقدوة: محمدًا ﷺ ينادي ربه متضرعا، وقد أفلتت من يديه قدرة العدالة، في المشاعر والأحاسيس، والميل والهوى: «**اللهم إن هذا قسمي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما لا أملك**» [رواه البخاري].

إن مطلع سورة النساء يمجد التقوى ويعلي من قدرها وشأنها، حينما ينادي الجنسين معا بالتذرع بها، والحض عليها، باعتبارها السبيل الأوحد، لتوفير السعادة للأسرة، وصولا للتكامل المنشود، **والتقوى**

إصرار ومثابرة، ورعاية لحق الله، وحقوق العباد..

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

انظروا إلى هذا السيل المتدفق بالحكمة والموعظة والتأمل، في هذا المطلع المعجز، والرائع...

نداء يليه طلب التقوى، ثم الحديث عن أصل الخلقة، ثم تدافعها للعمران، ثم طلب التقوى ثانية، وانتهاء بتأكيد رقابة الخالق الأعظم، وذلك كله لتوفير السعادة المأمولة للجنسين معا، وليس لجنس على حساب جنس، **أما أن تكون القوامة للرجل،** فهذا أمر الله العليم الحكيم، وأما أن يجعلها مشدودة، إلى قيم العدالة، والإنصاف والتراحم، فحتى تبقى للحياة رسالة وهدف، رسالة نبيلة، وهدف نبيل... وصلاة على المرسلين والحمد لله رب العالمين....

[المرأة في حياة الأنبياء]
عبد الرحمن محمد هليل



الفهرست

الفهرست




مطابع
المنصورة ت / ٢٢٣٣٨٦٧